مجلة تدبر

أولاً: البُحُوث

مجلة تدبر

البحث الأول :

بلاغة القرآن في تذييل الآيات
دراسة تأصيلية

أ.د. أحمد بن محمد الشرقاوي

أستاذ التفسير وعلوم القرآن وعضو اللجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة بجامعة الأزهر.

والأستاذ بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة وجامعة الشارقة سابقاً

sharkawe2000@yahoo.com

- حصل على درجة الماجستير من كلية أصول الدين بجامعة الأزهر في - التفسير وعلوم القرآن باطروحته منهج الشيخ سعيد حوى في كتابه الأساس في التفسير (دراسة مقارنة)
- حصل على درجة الدكتوراه من كلية أصول الدين جامعة الأزهر في التفسير وعلوم القرآن باطروحته (المرأة في القصص القرآني) دراسة موضوعية مقارنة .
- من مؤلفاته :
- المرأة في القصص النبوي.
- الكتب السابقة في القرآن الكريم دراسة موضوعية
- القرآن والحضارة، القرآن والكون، القرآن والمرأة.
- صلاة الاستخارة، الصبر عند فقد الولد، يتيمة الدهر في تفسير سورة العصر، المنهل القدسي في فضائل ومعاني آية الكرسي، مناهج المفسرين، الوسيط في تاريخ التشريع، مناهج البحث والمكتبة الإسلامية.

ملخص البحث

من وجوه البلاغة القرآنية الفريدة تذييل الآيات بما يتناسب مع مضمونها، ويأتي مبينا ومقررا لمعانيها، ولقد وقف المفسرون عند هذه السمة القرآنية، وأمعنوا النظر فيها، وهذه الدراسة تدور حول بيان معنى التذييل ، وأهمية دراسته، والفرق بينه وبين الفاصلة، وتبرزُ أَهَمِّيَّةُ دراسةِ التذييل في وجوه منها : الاستعانةُ بهذا العلمِ على فهمِ كتابِ اللهِ، وإبرازُ جانبٍ مُهم من جوانبِ الإعجازِ القرآني، وبيانُ مشكلِ التذييلِ، وردُّ شُبُهَاتِ المستشرقينَ وأعداءِ الدين حول الوحدة القرآنية. فضلا عن الاستعانة بهذا العلمِ في تثبيتِ حفظِ القرآنِ، كما تعرضُ الدراسة لفوائد التذييل وأصولُ الوقوفِ على لطائفهِ، وسماته، ولقد استفاد الباحث من مراجع البلاغة والتفسير وعلوم القرآن، وعُني بالتأصيل لهذه الموضوع ، مفرقا بين التذييل والفاصلة، مبيّنا أثر دراسة هذا العلم على فهم المعاني واستنباط الدقائق، ودفع الإيهام.

كلمات مفتاحية :

بلاغة ، تأصيل، تذييل ، الآيات، القرآن.

❊ ❊ ❊

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمدُ لله واهِبِ النِّعَمِ، وأشهد أن لا إلهَ إلا اللهُ واسعُ الجودِ عظيمُ الكرَمِ، أرسل رسولَهُ رحمةً لجميعِ الأمَمِ، وخصَّهُ بجوامِعِ الكلمِ وأطايبِ الحِكَمِ، وأكملَ له الدينَ وأتمَّ عليه النِّعَمِ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبِهِ أولي العزائِمِ والهِمَمِ، وعلى من تَبِعَ سُنَّتَه وسار على هديِهِ على الوجهِ الأتمِّ.

وبعدُ:

فالقرآنُ الكريمُ رسالةٌ خالدةٌ، ونِعَمٌ متجددةٌ، هدًى ونورٌ، ومنهاجٌ ودستورٌ، وخطابٌ لكلِّ العصور، ورحمةٌ وشفاءٌ لما في الصدور، وتدبُّرُ القرآنِ الكريمِ سبيلُنا إلى اقتطافِ ثَمَرَاتِهِ، واجتلاءِ أنواره، واقتباسِ هداياتِهِ، ومعرفةِ أحكامِهِ، والوقوفِ على لطائفِهِ وحِكَمِهِ؛ ومما هو حريٌّ بالتدبُّر والإمعانِ ما خُتمتْ به الآياتُ من تذييلاتٍ، تنمُّ عن بلاغةٍ وافيةٍ، وتَبينُ عن حِكَمٍ ساميةٍ.

وهذا بحثٌ في التذييل، كتبته منذ ثماني سنوات، وكنت أعيد النظر فيه بين الفينة والأخرى، ولعله الآن جديرٌ بالنشر، وقد جعلته بعنوان **«بلاغة القرآن في تذييل الآيات - دراسة تأصيلية»**. وأسأل الله القبول.

أهمية الموضوع

- **للموضوع أهمية بالغة، نجملها فيما يأتي:**

١) **إبراز جانب من جوانب الإعجاز القرآني** في تناسقه وجماله وروعته،

وتفرُّده بهذا الأسلوب.

٢) **الرد على شبهات أعداء الإسلام** الذين زعموا أن القرآن الكريم ليس له اتساق، ولا يجمعه سياق.

٣) **الاستعانة بهذه الدراسة** على تدبُّر كلام الله تعالى وفهمه وتفسيره.

الدراسات السابقة

قامت جامعة الأزهر بتكليف بعض الأساتذة ببحوث تطبيقية حول تذييل بعض الآيات، وكنتُ ممن كُلِّفت بكتابة التذييل؛ فكتبت في حزب من القرآن، من سورة آل عمران، ومن سورة النساء، سنة ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م، وتم تحكيم هذا البحث وإجازته من قِبَل اللجنة العلمية الدائمة لترقيات الأساتذة، وكنتُ أرجع إليه بين الفينة والفينة، ثم قررتُ إعادة كتابته مع التركيز على الجانب التأصيلي، والتمثيل لكل ما أذكر.

لكن لم أجد دراسة تأصيلية لهذا الموضوع باستثناء دراسة حديثة ظهرت عام ٢٠١٣م، لباحثة جزائرية، بعنوان «التذييل في القرآن - دراسة بلاغية - سورة البقرة نموذجًا»، نالت بها الباحثة فاطمة معزوز درجة الماجستير في الأدب، ولقد قرأتها فوجدت فرقًا كبيرًا بين دراستي وبينها من جهة التأصيل والتمثيل، ومن جهة المفاهيم والرؤى؛ فهي لم تضع تعريفًا محددًا لجمل التذييل القرآنية، وترى الباحثة أن جملة التذييل قد تقع في وسط الكلام، والذي اخترته أنها تقع في ختام الآية، وقامت بالمقارنة بين التذييل وأشياء أخرى ليست مناظرة له ولا ملتبسة به حتى تحتاج لمقارنة، كما أنها أطالت كثيرًا في قرابة ٥٠ صفحة في الكلام عن السياق بما يُعدّ عبئًا على البحث.

هذا بالإضافة إلى ما كُتب في الفاصلة من الناحية البلاغية، وأهمّ الدراسات العلمية دراسة الفاصلة للأديب محمد الحسناوي، وباستثناء ذلك فالدراسات أخذت منحى التطبيق دون التأصيل، فعنيت دراستي بالتأصيل مع التمثيل، مع استفادتي بجهود السابقين.

خُطَّة البحث

■ **أما عن خُطَّتي في هذا البحثِ، فهي على النحوِ الآتي:**

* **قمتُ بتقسيمِ البحثِ إلى: مقدمة، وتمهيد، وفصلين، وخاتمةٍ.**
* **المقدمةُ:** والحديثُ فيها عن أهميةِ الموضوعِ، وخطةِ البحثِ، ومنهجِهِ.
* **تمهيد:** معنى التذييل، وأهمية دراسته. ويحتوي على مبحثين:
* **المبحث الأول: تعريف التَّذييل في اللغة والاصطلاح، والفرق بينه وبين الفاصلة.**
* **المبحث الثاني: أَهَمِّيَّةُ دراسةِ التذييل في القرآن،** وقد اشتمل على ما يأتي:
  - أولًا: الاستعانةُ بهذا العلمِ على فهمِ كتابِ اللهِ.
  - ثانيًا: إبرازُ جانبٍ مُهم من جوانبِ الإعجازِ القرآني.
  - ثالثًا: بيانُ مُشكلِ التذييلِ.
  - رابعًا: ردُّ شُبُهَاتِ المستشرقين وأعداءِ الدين حول الوَحدة القرآنية، وترتيب القرآن.
  - خامسًا: الاستعانةُ بهذا العِلْم في تثبيتِ حفظِ القرآنِ.
* **الفصل الأول: فوائد التذييل وأصولُ الوقوفِ على لطائفِهِ، وفيه مبحثان:**

* **المبحث الأول: فوائد التذييل:** وقد اشتمل على ما يأتي:
  - أولًا: التبيين.
  - ثانيًا: تقرير المعاني.
  - ثالثًا: جمال العبارة.
  - رابعًا: إثراءُ المَعْنَى.
  - خامسًا: حُسْن التعليل.
  - سادسًا: حُسْن الخِتام.
  - سابعًا: الاحتراس.
  - ثامنًا: التنوع والتفنُّن.
  - تاسعًا: التعميم.
* **المبحث الثاني: أصولُ الوقوفِ على لطائفه،** وقد اشتمل على:
  - أولًا: مراعاةُ مقاصدِ القرآنِ الكريم.
  - ثانيًا: الدرايةُ باللغةِ العربيةِ وأساليبها وفنونها.
  - ثالثًا: مراعاةُ قواعدِ التفسيرِ وأُصُولِه.
  - رابعًا: النظرةُ الكليةُ للسورةِ.
  - خامسًا: النظرُ في السياقِ.
  - سادسًا: التذَوُّق وصفاءُ الذهنِ ومعايشةُ القُرْآنِ.
* **الفصل الثاني: فنون التذييل وسماته. وفيه مبحثان:**

* **المبحث الأول: من فنون التذييل في القرآن.** وقد اشتمل على:
  - أولًا: التتميم.
  - ثانيًا: التصدير.
  - ثالثًا: التوشيح.
  - رابعًا: التمكين.
  - خامسًا: الإيغال.
* **المبحث الثاني: من سمات التذييل:**
  - أولًا: مراعاة الفاصلة.
  - ثانيًا: التناسب.
  - ثالثًا: التعميم.
  - رابعًا: الوضوح والبيان.
  - خامسًا: التكرار.
  - سادسًا: العمق والدقة.
  - سابعًا: التنوع والتفنن.
* **ثم الخاتمة وقد ضمَّنْتُهَا:**
  - خلاصةَ البحث ونتائجَه.
  - أهمَّ التوصيات.
  - ثبتًا بمراجعِ البحث.
  - فهرسَ الموضوعات.

منهج البحث

يجمعُ هذا البحثُ بين المنهج التحليلي والمنهج الاستنباطي، حيثُ التأمُّلُ والتدبُّرُ والاستنتاجُ والاستخلاصُ، والاستنباطُ، إضافةً لما يأتي:

١) **القيام بدراسة تذييلات القرآن دراسة تدبرية؛** للوقوف على خواصّها ولطائفها.

٢) **الاطِّلاع على ما كُتِبَ عن فن التذييل،** وكذلك الفاصلة قديمًا وحديثًا.

٣) **رجعتُ إلى ما تيسَّر لي الرجوعُ إليه من كتب التفسير وعلوم القرآن،** حتى تكوَّنتِ الفكرةُ واتضحت الرؤيةُ، فبدأتُ بالدراسةِ النظريةِ؛ حتى تكونَ عونًا وضياءً على فهمِ معاني التذييل واستخراجِ لَطَائِفِهِ ودُرَرِهِ.

٤) **الجمع بين التأصيل والتمثيل؛** لإبراز روائع أسلوب التذييل وجلال مقاصده.

٥) **الآيات القرآنية منسوخةٌ برسم المصحف العثماني،** مع بيان اسم السورة ورقم الآية.

٦) **ضبطُ الأحاديث والآثارِ مع تخريجِهَا،** وبيان حكمها، وتوضيح غَرِيبِهَا.

٧) **ضبطُ الأشعار وعزوُها إلى من قالها،** مع بيانِ مَوْضِعِ الشاهِدِ منها إذا احتَاجَ إِلى بيانٍ.

وبعدُ:

فهذا جهدُ المُقِلِّ، فإن كان فيه من خيرٍ، فلله الحمدُ وله الفضلُ، وأسألُهُ تعالى القَبُولَ، فهو خيرُ مأمولٍ، وإن كان فيه من تقصيرٍ، فأرجُو من القارئ الكريمِ أن ينظر لي بعينِ الوُدّ، ويدعو لي بالمغفرة والرحمة.

وصلِّ اللهم على معلِّم الناسِ الخيرَ والحكمة، نبيِّنا وإمامِنا وقدوتِنا محمدٍ ناصح الأمة، ومن كشف الله به الغُمّة، وعلى آله وصحبه أولي الفضل والهمّة، ومن تبعهم بصدق وعزمة، وسلِّم تسليمًا كثيرًا.

❊ ❊ ❊

تمهيد

معنى التذييل وأهمية دراسته

المبحث الأول

تعريف التَّذييل في اللغة والاصطلاح، والفرق بينه وبين الفاصلة

أولًا: التَّذييلُ في اللغة:

أصلُه من الذَّيْلِ وهو: آخِرُ كُلِّ شَيْءٍ، ومنه طرفُ الثوبِ، ورِدَاءٌ مُذَيَّلٌ: طَوِيلُ الذَّيْلِ، وذَيْلُ المَرْأَةِ: طرف ردائها، وذالَتِ المرأة تَذيلُ: جرَّت ذيلَها على الأرضِ وتبخترتْ، وقد ذَيَّلَ ثَوْبَهُ تَذْيِيلًا، ومنه قول طَرَفَةَ بنِ العَبدِ:

فَذالَتْ كما ذالَتْ وَليدَةُ مجلسٍ ... تُري رَبَّها أَذْيالَ سَحْلٍ[1] مُمَدَّدِ[2]

وفي الحديث «عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: سُئِلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَمْ تَجُرُّ الْمَرْأَةُ مِنْ ذَيْلِهَا؟ قَالَ (شِبْرًا)، قُلْتُ إِذًا يَنْكَشِفُ عَنْهَا! قَالَ: (ذِرَاعٌ لَا تَزِيدُ عَلَيْهِ)»[3].

---

(١) ذالت: ماست، وتبخترت الناقة في مشيتها كما تتبختر وليدة، أي صبيّة عُرِضَت على أهل مجلس، فأرخت ثوبها، واهتزت بأعطافها، أو تراقصت حتى دار ذيل ثوبها، والسحل: الثوبُ الأبيضُ النقيُّ والممدد الذي ينجر في الأرض. يراجع شرح القصائد العشر، أبو زكريا يحيى بن علي بن محمد الشيبانيّ التبريزي (ص: ٧٧).

(٢) يراجع: لسان العرب لابن منظور ١١/ ٢٦٠، ومختار الصحاح للرازي ١/ ٢٢٦، والمصباح المنير للفيومي ١/ ٢١٣، وتاج العروس للزبيدي ٧/ ٣٢١ مادة ذ ي ل.

(٣) رواه النسائيُّ في السنن كتاب الزينة – باب ذيول النساء حديث ٥٣٣٧، ورواه ابنُ ماجه في السنن كِتَاب اللِّبَاسِ بَاب ذَيْلِ الْمَرْأَةِ كَمْ يَكُونُ؟ حديث ٣٥٨٠، ورواه أحمد في المسند ٦/ ٢٩٥ و٣٠٩، ورواه البيهقي في السنن ٢/ ٢٣٣ عن محمد بن إسحاق عن نافع عن صفية بنت أبي عبيد عن أم سلمة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا إسناد رجاله ثقات لولا عنعنة ابن إسحاق لكنه توبع، فرواه مالك في الموطأ=

ثانيًا: التذييل في الاصطلاح:

جاء في سرِّ الصناعتين: «التذييل: إعادة الألفاظ المترادفة على المعنى بعينه، حتى يظهر لمن لم يفهمه، ويتوكَّدُ عند من فهمه»(١)، وهذا تعريفٌ ليس جامعًا مانعًا؛ إذ تشمل الإعادة على إطلاقها، دون تقيد بختام الجملة، كما أنه أدرج في التعريف مقصود التذييل.

وفي سرِّ الفصاحة: «وأما التذييلُ: فهو العبارةُ عن المعنَى بألفاظٍ تزيدُ عليه»(٢). وليس هذا التعريف بالجامع المانع.

وجاء في كتاب البديع في نقد الشعر: «اعلم أن التذييل: هو أن تأتي في الكلام جملةٌ تحققُ ما قبلها، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]، وكذلك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠]، ﴿وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٧] وهو كثير في القرآن»(٣). ولم يبين أسامة بن منقذ في تعريفه موقع جملة التذييل.

وفي الإيضاح: «التذييلُ: تعقيبُ الجملةِ بجملةٍ تشتملُ على معناها للتوكيدِ»(٤).

ولم يُشر القزويني إلى موقع جملة التذييل التي تأتي في ختام الكلام، كذلك لم يبين مقاصد التذييل الأخرى كالتبيين، ودفع الإيهام، والتعميم.

= ٣/ ١٠٥: عن أبي بكر بن نافع عن أبيه نافع مولى ابن عمر به، ومن طريق مالك أخرجه أبو داود في السنن، كِتَاب اللِّبَاسِ بَاب فِي قَدْرِ الذَّيْلِ ٢/ ١٨٤ حديث ٣٥٩٠، وابن حبان في صحيحه حديث ١٤٥١، وأبو بكر بن نافع ثقة من رجال مسلم؛ فالإسناد صحيح على شرطه.

(١) كتاب «الصناعتين» لأبي هلال العسكري، الفصل الرابع عشر في التذييل ص ٢٨٥.

(٢) سر الفصاحة، لابن سنان الخفاجي ص ١٦٤: ١٦٧، ويراجع تلخيص المفتاح للقزويني ص ٢١١.

(٣) البديع في نقد الشعر، لأسامة بن منقذ، باب التذييل ص ٥٣ باختصار.

(٤) الإيضاح في علوم البلاغة، لجلال الدين القزويني باب الإطناب ص ١٩٠، ويراجع: علوم البلاغة البيان والمعاني والبديع، للأستاذ أحمد مصطفى المراغي ص ١٧٧.

وجاء في تحرير التحبير: «التذييلُ: هو أن يذيِّلَ المتكلمُ كلامَهُ بجملةٍ يتحققُ فيها ما قبلها من الكلامِ، وتلك الجملةُ على قسمين: قسمٌ لا يَزِيدُ على المعنى الأَول، وإنما يؤتَى به للتوكيدِ والتحقيقِ، وقسمٌ يُخْرِجُهُ المتكلمُ مخرجَ المثلِ السائرِ ليحققَ به ما قبله»[(١)]. قلتُ: بل جملةُ التذييل مع كونها محققةً ومبينةً لما قبلها إلا أنها تثري المعنى، وتضيف معنى زائدًا.

■ **ويلاحَظُ على هذه التعريفات:**

* **أنها تَشْمَلُ التذييلاتِ الواردةَ في القرآنِ،** وكذلك ما وردَ في كلامِ العربِ من نثرٍ وشعرٍ.
* **الغرضُ من التذييل:** تحقيقُ المعاني وتوكيدُها وتقريرُها، فضلًا عن الإيضاحِ والتبيينِ.
* **أن التذييلَ عند علماءِ البلاغةِ** قد يقعُ في وَسَطِ الكلامِ، أو في آخِرِهِ.
* **التوافُقُ والانسجامُ** بين معنى جملةِ التذييلِ والكلامِ المُذيَّل.
* **جملة التذييل القرآنية مستقلة بلفظها ومعناها غالبًا،** فتسير مثلًا سائرًا يحسن اقتباسه.

ولا يختلفُ كثيرًا تعريفُ التذييلِ عند علماءِ التفسيرِ وعلومِ القرآنِ عن تعريف البلاغيين؛ ففي البرهان والإتقان: التذييل: «أن يأتيَ بجملةٍ عقب جملة، والثانية تشتمل على المعنى الأول؛ لتأكيد منطوقه أو مفهومه؛ ليظهر المعنى لمن

(١) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر لابن أبي الأصبع باب التذييل ص ٣٨٧، ويراجع في ذلك: خزانة الأدب وغاية الأرب، لتقي الدين أبي بكر علي بن عبد الله الحموي ١/ ٢٤٢، ومعجم البلاغة العربية، د. بدوي طبانة ص ٢٣٤، والمعجم المفصل في علوم البلاغة البديع والبيان والمعاني د. إنعام نوال عكاوي ص٣٠٠، وجاء في التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي: «التذييلُ: تعقيبُ جملةٍ بجملةٍ مشتملةٍ على معنَاهَا للتأكيدِ» التوقيف على مهمات التعاريف لمحمد عبد الرؤوف المناوي ١/ ١٦٨.

لم يفهمه ويتقرر عند من فهمه»[1].

ولم يحدد لنا الزركشي موقع جملة التذييل، كما أن جملة التذييل تأتي تعقيبًا لجملة أو أكثر، لا لجملة واحدة.

والذي أراه أنَّ جملةَ التذييلِ: جملةٌ مستقلة تأتي في ختامِ الآي بعدَ تَمَامِ المعنى لبيانه وتقريرِه.

جملة مستقلة لفظًا ليس لها تعلقٌ لغويٌّ بما قبلها، بل هي مستأنفة غالبًا، وقد تأتي مقرونة بحرف العطف.

تأتي في ختام الآي: فالتذييل هو في خواتيم الآيات ولا يكون في وسطها، لبيان المعنى وتوضيحه أو دفع إيهام، ولتقريره: لتوكيده وتحقيقه.

والتذييل قد يقع ختامًا لآية، أو لآيتين، أو أكثر.

فخرج بذلك: الجملة المتصلة بما قبلها لفظًا: كالواقعة في جواب الشرط، أو خبر المبتدأ وغيرها، فليست تذييلا؛ إذ لا يمكن فصلها عمَّا قبلها فلا تستقل بمعنى، لذا فلن نتوقف في دراستنا التطبيقية عند الآيات التي لم تختم بتذييل: أي بجملة مستقلة محققة لما قبلها من المعنى.

ثالثًا: الصلة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي:

الصلةُ بينهما واضحةٌ جليَّةٌ؛ فذيلُ الشيء هُو نهايتُه، وذيلُ الثوبِ طرفُهُ، وذيلُ الكلامِ آخرُهُ ومُنتَهَاهُ، والتذييلُ هو الجملةُ التي تردُ بعد تمام المعنى؛ للبيان أو التقرير أو لكليهما معا، فكأنَّه شبَّه هذه الجملةَ لزيادتِها، وكونِ المعنى يتمُّ بدونها

(١) البرهان في علوم القرآن لبدر الدين الزركشي (ت٧٩٤ هـ) – النوع الخامس عشر ٣/ ٦٨، والإتقان في علوم القرآن لجلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ) – ١/ ٣١٤.

بالزائد من ذيلِ المرأةِ الذي ينجرُّ على الأرضِ، فَيَزِيدُ الثوبَ حُسنًا وتأنُّقًا، وقد جَرَت الأذواقُ على ضرورةِ التناسقِ بين الثوبِ وذيلِهِ، من جهةِ الألوانِ والنقوشِ والخيوطِ وغيرِها، مع مراعاةِ التنوعِ والتفننِ والتناسب في الشكل، شأنُ التذييلِ الذي لا بدَّ وأن يتناسبَ مع سابقِه، ويدلَّ عليه ويقرِّره ويزيدَه روعةً وحُسنًا، والتذييلُ يكونُ في النثر والشعرِ، وهو لونٌ من ألوانِ البلاغةِ وفنٌّ من فنونها، وهو من روائعِ أساليبِ القرآنِ وبدائعِ نظمِهِ.

رابعًا: الفاصلة في اللغة والاصطلاح:

١- الفاصلة في اللغة:

من الفصل والبيان، قال الأزهري: «وأواخِرُ الآياتِ في كِتَابِ اللهِ فَوَاصِلُ، بِمَنْزِلَةِ قَوَافِي الشِّعر، واحِدَتُها فاصلةٌ...»[(١)].

وقال ابن منظور: «الفواصلُ أواخرُ الآياتِ في كتابِ الله [(٢)]، «وسُمِّيتْ فواصلُ؛ لأنه ينفصلُ عندها الكلامانِ، حيث إن آخرَ الآيةِ فَصْلٌ بينها وبينَ ما بَعْدَها»[(٣)].

٢- الفاصلة في الاصطلاح:

جاء في البرهان للزركشي: «الفاصلةُ كلمةُ آخرِ الآيةِ كقافيةِ الشعرِ وقرينةِ السجعِ»[(٤)].

وعرَّفها الرُّماني والباقلاني بأنها: «حروفٌ متشاكلةٌ في المقاطع، يقعُ بها إفهامُ المعاني»[(٥)].

---

(١) تهذيب اللغة للأزهري: أبي منصور الأزهري ١٢/ ١١٨ باب الصاد واللام مادة «ف ص ل» باختصار.

(٢) لسان العرب لابن منظور ١١/ ١٨٩، ويراجع كتاب التوقيف على مهمات التعاريف، للإمام المناوي ص ٥٥٨.

(٣) الفاصلة القرآنية، للدكتور عبد الفتاح لاشين ص ٦.

(٤) البرهان في علوم القرآن للزركشي ١/ ٥٣ النوع الثالث: معرفة الفواصل ورؤوس الآي، ويراجع: الإتقان في علوم القرآن، النوع التاسع والخمسون: في فواصل الآي ٢/ ٩٦.

(٥) النكت في إعجاز القرآن، للرماني ص٩٧، وإعجاز القرآن لأبي بكر الباقلاني ص ٢٧٠، ويراجع: مرشد الخلان، عبد الرازق على إبراهيم موسى ص ٣٤.

وقيل في تعريفها: «هي الكلمةُ التي تُخْتَمُ بها الآيةُ، وبها يتمُّ معناها، ويزدادُ وُضُوحًا وجلاءً»[(١)]، وعلى هذا فليس كلُّ خِتَامِ آيةٍ فاصلةً؛ لأن الآيةَ قد تُختمُ قبل تمامِ المعنَى.

وعرَّفها أبو عمرو الداني بأنها «كلمةُ آخرِ الجملة» قال: «وأما الفاصلة: فهي الكلام التام المنفصل عما بعده، والكلام التام قد يكون رأسَ آية وكذلك الفواصل، يكنَّ رؤوسَ آيٍ وغيرها، فكل رأس آيةٍ فاصلة، وليس كل فاصلة رأس آية، فالفاصلة تعُمّ النوعين وتجمع الضربين»[(٢)].

وعرَّفها د. أحمد بدوي: بأنها الكلمة التي تُخْتَمُ بها الآية من القرآن[(٣)].

واختار الأديب محمد الحسناوي في كتابه «الفاصلة في القرآن»، أن الفاصلة: «هي كلمة آخر الآية: كقافية الشعر، وسجعة النثر»[(٤)].

وفرَّق د. السيد خضر بين تعريف الفاصلة من جهة الصوت، ومن جهة الدلالة، أما بالاعتبارِ الصوتي فهي آخِرُ كلمةٍ في الآيةِ، وأما باعتبارِ الدلالةِ فيقول: «وباعتبار الدلالة نجد جملة الفاصلة، وفيها تكون كلمة الفاصلة جزءًا من تركيب جملة مستقلَّة في نهاية الآية، وهي جمل تأتي للتعقيب أو لتقرير مضمون الآية غالبا»[(٥)].

قلتُ: وليس كل فاصلة قرآنية جزءًا من تذييل؛ إذ كل آية لها فاصلة، وإن لم تختم بتذييل.

---

(١) الظاهرة الجمالية في القرآن الكريم نذير حمدان ص ٤١.

(٢) البيان في عد آي القرآن، لأبي عمرو الداني ص ١٢٦.

(٣) من بلاغة القرآن، أحمد بدوي ص ٧٥.

(٤) الفاصلة في القرآن، محمد الحسناوي ص ٢٩.

(٥) الفواصل القرآنية دراسة بلاغية، للدكتور السيد خضر ص ٥٧.

خامسًا: بين التذييل والفاصلة:

* الفواصل تقع في الشعر والسجع وغيرهما من فنون الكلام كما تقع في كتاب الله تعالى.
* الفاصلةُ هي المقطع الأخير من الكلمة الأخيرة في الآية، تمَّ بها المعنى أم لم يتمَّ.
* التذييلِ تقريرٌ للمعنى وبيانٌ له.
* التذييل لا يقعُ إلا بجملةٍ، أما الفاصلة فالمقطع الأخير من آخر الآية.
* لكُلّ نهايةِ آيةٍ فاصلةٌ، وليس لكلّ آيةٍ تذييلٌ.
* الفاصلة للآية كالقافية للبيت، بها يعرف ختامُها، ويُراعَى في الفواصلِ غالبا التوافق اللفظي والانسجام الصوتي، مع السياق.
* معرفة الفواصل أمرٌ يسيرٌ، بينما الوقوف على التذييل يحتاج لدراسة وتدقيق.
* درج بعض المفسرين والبلغاء على الاكتفاء بمراعاة الفواصل كتعليل، وربما يغلق بذلك الباب عن النكات البلاغية واللطائف والدقائق المعنوية التي تُحجبُ عن القارئ، فلا يرى سوى مراعاة الفاصلة، أو رعاية الفواصل.

❊ ❊ ❊

المبحث الثاني

أهمِّيَّةُ دراسةِ التذييل في القرآن

تذييلُ الآيات القرآنية:

سمةٌ فريدةٌ من سمات القرآن الكريم، تدلُّ على بلاغَتِه وروعتِه، وجمالِه وجلالِه، وتُعينُ على فهمِ المعنى، واستنباطِ الأحكام، من هنا مسَّت الحاجةُ إلى الوقوفِ عند تذييلاتِ الآياتِ، وإطالةِ النَّظرِ فيها، وإبرازِ معانِيها، وبيانِ تناسبِها وتآخيها.

وفيما يلي أتناولُ أهميةَ التذييل، بشيء من التفصيلِ، فأقولُ – وعلى الله قصدُ السبيلِ –:

أولًا: الاستعانةُ بهذا العلمِ على فهمِ كتابِ الله:

أَمَرَنَا اللهُ بتدَبُّرِ كتابِه وإمعانِ النظرِ في مبانِيه ومعايشةِ معانيه وتذوُّقِ أساليبِه وتتبُّعِ تراكيبِه؛ لاستنباطِ الأحكامِ، واستجلاءِ المعاني، وإن دراسةَ أساليبِ التذييل: مما يُعينُ على فهمِ معنى محكمِ التنزيلِ، ويَبينُ عن كثيرٍ من اللطائفِ والدقائقِ.

قال الرماني: «الفواصل: حروفٌ متشاكلةٌ في المقاطعِ، توجبُ حُسْنَ إفهامِ المعاني»[1].

تأمل في قوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ١٢٨ وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٢٩﴾ [النساء: ١٢٨، ١٢٩].

(١) إعجاز القرآن للرماني ضمن كتاب ثلاث رسائل في الإعجاز، تحقيق محمد زغلول سلام ص ٩٧.

* لماذا خُتمت الآية الأولى بـ﴿وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ وخُتمت الثانية بـ﴿وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾؟

فالآية الأولى: إذا خافت الزوجةُ إعراضَ زوجها وانصرافَه عنها، فلها أن تتغاضَى عن بعضِ حقوقِها في النفقة أو في المبيتِ إرضاءً لزوجها، فإذا اتفقَا على ذلك فلا بأسَ، إبقاءً للعشرة بينهما، فالصلحُ خيرٌ، وإن ترتَّب عليه التَّغاضي عن بعض الحقوق؛ ذلك أن النَّفْس قد جُبِلَتْ على الشُّح، يحرص الإنسان على نيل حقوقه كاملة، وربما قصَّر في حقوق غيره، لكن إذا وفَّى الإنسانُ حقَّ غيره وتنازل عن بعض حقوقه، فهذا من باب السماحة، ومن شيم أهل التقى والإحسان، لذا كان تذييلُ الآية بقوله تعالى: ﴿وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾: أي وإن تُحسنوا في صلتكم بربكم بمراقبته تعالى، وتُحسنوا في تعاملاتكم مع الناس، ﴿وَتَتَّقُوا۟ تَعْمَلُونَ﴾ من الإحسان والتقوى وسائر الأعمال، ﴿خَبِيرًا﴾: بطبائع النفوس وبواعثها، ﴿خَبِيرًا﴾ ببواطن الأمور وظواهرها، ﴿خَبِيرًا﴾ بأعمالكم يجازيكم عليها، «فالإحسانُ والتقوى هما مناطُ الأمر في النهاية، ولن يضيعَ منهما شيءٌ على صاحبه، فإن الله خبيرٌ بما تعملُهُ كل نفس؛ خبيرٌ ببواعِثِهِ وكوامِنِهِ. والهُتَافُ للنفس المؤمنة بالإحسان والتقوى، والنداءُ لها باسم الله الخبير بما تعمل، هُتافٌ مؤثر، ونداءٌ مُستجابٌ، بل هو وحدَه الهُتَافُ المؤثِّرُ والنداء المستجاب»[1]. «وإِنْ تُحْسِنُوا بإمساكِهِنَّ بمعروفٍ وحُسْنِ المعاشرةِ، مع عدمِ موافقتِهن لطباعِكم، وَتَتَّقُوا ظلمَهُن بالنشوزِ والإعراضِ، فاللهُ تعالى يثيبُكم عليه»[2].

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٢٥٢.

(٢) حاشية محيي الدين شيخ زادة على تفسير البيضاوي ٢/ ٤٥٠. ويراجع الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٥/ ٤٠٧.

وفي الآية الثانية: دعوةُ الأزواج إلى الإصلاح والتقوى، بالعدل بين الزوجات والوفاء بحقوقهنَّ وحُسن معاشرتهنَّ، فمن فَعَلَ ذلك غَفَرَ اللهُ له ما سَلَفَ من إفراطٍ وتفريطٍ، وعفَا عما بَدَرَ منه من ميلٍ قلبيٍّ لا سلطانَ له عليه. ولمَّا كان الميلُ المنهيُّ عنه ظلمًا، هو الميلُ الماديُّ في النفقةِ والمسكنِ والقسمةِ، وجاءت الدعوةُ إلى تحرِّي العدل والإنصاف، والسعيِّ للإصلاح بقدر المستطاع، نَاسَبَ ذلك البشارة بالمغفرة والرحمة على ما فات قبل نزول هذه الآيات، أو على ما ليس بوسعِ الإنسانِ طالما أنه اجتهدَ بقدرِ طاقتهِ إلى مراعاةِ حدِّ العدالةِ والإصلاحِ.

۞ ثانيًا: إبراز جانبٍ مهمٍّ من جوانب الإعجاز القرآني:

فالبحثُ فيه يكشفُ عن تناسبٍ دقيقٍ وترابط عميق بين صدرِ الآية وما تضمَّنته من معانٍ، وبين ختامها حيث تقريرُ المعاني وتوكيدُها، والتذييل يَزيدُ المُذيَّل حُسنًا ورونقًا وروعةً، فبالتذييل تزداد المعاني جلاءً، وتزدانُ الألفاظُ والعبارات روعةً وسناءً، وتتجلَّى لطائفُ الصلات ودقائقُ المناسبات بين الآياتِ بما يكشفُ عن الوحدة الموضوعيةِ للقرآن، ويبرزُ جانبًا من جوانب إعجازه البلاغي.

ولقد ذكر الباقلاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ من وجوه إعجاز القرآن الوجه الثالث: «..أنه بديعُ النظمِ عجيبُ التأليفِ، متناهٍ في البلاغةِ إلى الحدِّ الذي يُعْلَمُ عجزُ الخلْقِ عنه...»[1].

قال البوصيري:

لها مَعانٍ كَمَوْجِ البَحْرِ في مَدَدٍ ... وفَوْقَ جَوْهَرِهِ في الحُسْنِ والقِدَمِ

(١) إعجاز القرآن للباقلاني ص ٣٥ ويراجع ما ذكره في ص ٣٧. ويراجع: النبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز ص ٢٠٩ وإعجاز القرآن والبلاغة النبوية، الأستاذ مصطفى صادق الرافعي ص ٢٨٠، والأساس في التفسير للشيخ سعيد حوى ٧/ ٣٦٠٢.

فما تُعَدُّ وَلا تُحْصى عَجَائِبُها ولا تُسامُ عَلَى الإكثارِ بالسَّأَمِ
فالدُّرُّ يَزدادُ حُسْنًا وَهْوَ مَنْتَظِمٌ وَلَيسَ يَنْقُصُ قَدْرًا غيرَ مَنْتَظِمِ[1]

وقال د. محمد عبد الله دراز رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه النبأ العظيم: «لعمري لئن كان للقرآن في بلاغة تعبيره معجزات، وفي أساليب ترتيبه معجزات، وفي نبوءته الصادقة معجزات، وفي كل ما استخدمه من حقائق العلوم النفسية والكونية معجزات، لعمري إنه في ترتيب آيِه على هذا الوجه لهو معجزة المعجزات»[2].

وقال الشيخ سعيد حوى رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإن منزِّلَ هذا القرآنِ المحيطَ بكل شيء جعَلَ في كتابه من أسرار الإعجاز، ومن تشابك الصِّلات بين سُوَرِه وآياته ما به يعرف أن هذا لا يمكن أن يكون إلا إذا كان مُنزِّل هذا القرآن هو الله رب العالمين، الذي أحاط بكل شيء علمًا»[3].

۞ ثالثًا: بيان مُشْكَلِ التذييل:

فقد تخفى وجوه المناسبة بين ختام الآية والسياق، وهنا تأتي أهميةُ دراسةِ هذا العلمِ والتعمُّقِ فيه لإيضاحِ المشكلِ ودفعِ ما يوهِمُ ظاهرُهُ التعارضَ.

مثال ذلك: قوله تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: ١١٨].

فهذا من المُشكِل، قال أبو حيان: «وظاهر قوله: ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾

(١) البردة للبوصيري، شرح البردة، تأليف السوسي على كان حيا قبل ١١٦١ مخطوط ٥, ٨١١ ش.س ٤٦٨٦ بجامعة الملك سعود لوحة ٢٧.
(٢) النبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز ص ٢٠٩.
(٣) الأساس في التفسير للشيخ سعيد حوى ٧/ ٣٦٠٢. وينظر: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، الأستاذ مصطفى صادق الرافعي ص ٢٨٠.

أنه جواب الشرط، والمعنى ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يمتنع عليك ما تريده، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فيما تفعله تُضِلّ من تشاء وتهدي من تشاء...»[1].

قلتُ: في جواب الشرط مناسبةٌ لطيفةٌ؛ فإنه لما ادَّعى النصارى أن الله تعالى أرسل عيسى ابن مريم - وهو في زعمهم الباطل واعتقادهم الفاسد - ابنه الوحيد، الذي أرسله ليكون فداء وكفارة لخطايا البشرية، وكأنه تعالى - على زعمهم - عَجَزَ عن مغفرتها بغير هذا الأسلوب الغريب العجيب، من هنا بيَّن سبحانه قدرتَهُ على المغفرة؛ حيث لا يمتنع عليه شيء، فإن شاء أن يُعذِّب وإن شاء أن يغفِر دون افتقارٍ إلى واسطةٍ أو وسيلةٍ تتنافى مع عزَّته تعالى وحكمته، والعقل السليم يمجُّ هذه العقيدةَ الملتويةَ التي تأباها الفطرة السويَّة، وما هي إلا مضاهاةٌ لبعضٍ من الأديان الوثنية القديمة، والتي تحمِلُ أسطورةَ الثالوث والصلب والفداء.

كذلك لمَّا جاء في صدر الآية على لسان المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ ناسبَ ذلك مقام العزَّة والحكمة، فهو تعالى العزيز الغالب الذي لا يمتنع عليه شيء، وهو الحكيم في أقداره وأحكامه ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، وقيل: المعنى إن تُبقِهم على كُفرِهم حتى يموتوا، وتُعذِّبهم فإنهم عبادك، وإن تهدهم إلى توحيدك وطاعتك فتغفر لهم فإنك أنت العزيز الذي لا يمتنع عليك ما تريده، الحكيم فيما تفعله، تضلُّ من تشاء وتهدي من تشاء.

۞ رابعًا: ردُّ شبهات المستشرقين وأعداء الدين حول الوحدة القرآنية:

في دراسة هذا الموضوع ردٌّ علميٌّ على أعداء الإسلام من الطاعنين في وحدة القرآن الكريم عمومًا، وتناسب التذييل في القرآنِ على وجهِ الخُصُوصِ، حيث

(١) البحر المحيط لأبي حيان ٤/ ٦٢، ويراجع: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٦/ ٣٤٨.

أثاروا الشُّبَهَ حول ترتيبِ القرآنِ، وزَعَمُوا أن آياتِ القُرْآنِ لا يجمعُهَا سياقٌ، وأوصوا بإعادةِ ترتيبِ القرآنِ.

ففي دائرة المعارف البريطانية: أن القرآن لا حكمة في ترتيبه، واستدلوا على هذه الدعوى بالفواصل والتذييلات القرآنية، حيث جاء فيها: «وكان القرآن يعطي للقارئ أنه مجرد إنشاء جاء بطريقة عشوائية، ويؤكِّد صحَّة ذلك طريقة ختم هذه الآيات، بآيات مثل: (إن الله عليم)، (إن الله حكيم)، (إن الله يعلم ما لا تعلمون)، وأن هذه الأخيرة لا علاقة لها مع ما قبلها، وأنها وضعت فقط لتتميم السجع والقافية»[(١)].

ويقول المستشرق الفرنسي بلاشير[(٢)]: «إن إعادة ترتيب السور الذي اقترحه [نولدكه][(٣)] ينال هنا كامل الأهمية؛ لأنه يلقي على المصحف أضواء مطمئنة، ويرد وضع النصوص إلى آفاق سهلة الإدراك لكونها مقرونة إلى السياق التاريخي المعقول (يعني وفق نزولها).

ويقول بلاشير أيضا: «ويتوصل القارئ الغربي إذ ذاك بمنطق لا تكلُّف فيه إلى الاقتناع بأن الحياة قد أعيدت للصحف فما عاد يظهر على شكل متتابع مُصطَنع وغير منتظم للنصوص، بل على شكل سلسلة من الموضوعات عالجها محمد خلال عشرين عامًا وفقا لمقتضيات دعوته».

---

(١) يراجع قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية، للدكتور فضل حسن عباس ص ٧٩ – ٩٣.

(٢) مستشرق فرنسي من أشهر كتبه تاريخ الأدب العربي وكتابه القرآن: نزوله تدوينه ترجمته وتأثيره – تراجع ترجمته في كتاب المستشرقون للأستاذ/ نجيب العقيقي (١/ ٣٠٩: ٣١٢).

(٣) مستشرق ألماني ت١٩٣٠م له مؤلفات عديدة منها تاريخ النص القرآني – تراجع ترجمته في كتاب المستشرقون للأستاذ/ نجيب العقيقي (٢/ ٣٧٩: ٣٨٣).

ثم يقول في الموضوع نفسه: «والمهم منذ تلك اللحظة أن يقبَل قارئُ القرآن بالانقياد، وتدلُّ التجربة فيما يبدو أن التقيد بالمراحل الزمنية للترتيب الذي اقترحه نولدكه وأخذ به بعض المترجمين يجعل قراءة المصحف سهلة بل ممتعة»(١).

وما ذهب إليه بلاشير ومن قبله نولدكه أغرب إليه المستشرق اليهودي جولدزيهر في كتابه مذاهب التفسير الإسلامي، حيث يقول: «إن القرآن في جميع الشوط القديم للتاريخ الإسلامي لم يحرز الميل إلى التوحيد العقدي للنص إلا انتصارات طفيفة»(٢).

وأقول: إن التذييلات والفواصل القرآنية مبنيَّةٌ أولًا على مراعاةِ المعنَى، وثانيًا على اعتبار تناسب اللفظِ والنَّظم، وإن كان مراعاةُ اللفظِ والنظمِ ليس مطَّردًا، **ومرجعُ ذلك إلى أُمُورٍ منها:**

- أن المعنَى هو الأَصلُ، واللفظُ والنظمُ تابعٌ له.
- التفنُّنُ والتنوُّعُ في الأساليبِ القرآنيةِ، وهذا من سماتِ القرآن التي تفرَّد بها عن غيره؛ ذلك أنه ليس بسجعٍ ولَا شعرٍ، كما أنه ليس كالكلام المرسل، معاذ الله أن يشتبهَ كلامُه تعالى بكلام غيره.
- الأسلوبُ القرآني سهلٌ يسيرٌ لا تكلُّف فيه، بل يتسم بالرصانة والعمق، مع عذوبته وحلاوته.

خامسًا: الاستعانةُ بهذا العلم في تثبيت حفظ القرآن الكريم:

من فوائد دراسة التذييل أيضًا تثبيت حفظ القرآن الكريم، حيث يقع اللبسُ

(١) القرآن: نزوله تدوينه ترجمته وتأثيره، لبلاشير، ترجمة رضا سعادة ص٢٣: ٤٤.
(٢) الإطناب.

أحيانًا في ختامِ الآيةِ، فيعينُ هذا العلمُ على تجنُّبِ ذلك، ولقد عُني العلماءُ والباحثون بالتأليفِ في الآياتِ المشتبهاتِ، جمعًا وتحليلًا [1].

❊ ❊ ❊

(١) ومن الكتب المؤلفة في ذلك: درة التنزيل وغرة التأويل، للخطيب الإسكافي: أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت ٤٢٠هـ)، ط دار الآفاق الجديدة بيروت، والبرهان في متشابه القرآن، للكرماني محمود بن حمزة بن نصر الكرماني (ت٥٠٠ هـ)، ط دار صادر بيروت، ودار الاعتصام بالقاهرة، وملاك التأويل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، للإمام أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي (ت ٧٠٨ هـ) ط دار الغرب الإسلامي بيروت، كشف المعاني في المتشابه من المثاني، لبدر الدين بن جماعة (ت ٧٣٣هـ)، ط جامعة الدراسات الإسلامية كراتشي، ودار الوفاء بالمنصورة.

الفصل الأول

فوائد التذييل وأصولُ الوقوفِ على لطائفه

المبحث الأول

فوائد التذييل

للتذييلِ فوائدُ عديدةٌ، فهو لونٌ من ألوان الإطنابِ[1] به تَأْلَفُ الجُمَلِ وتأْلُقُها، وتعانقُ العبارات وتأنُّقُها، وانجلاءُ المعاني وتدفُّقُها، وهو من المحسِّناتِ البلاغيةِ؛ حيثُ حُسْنُ الختامِ، وَبَرَاعَةُ المقطَعِ، وتَعَانُقُ الأطرافِ، وَعُمْقُ الصِّلَةِ، ومن الفوائِدِ الجمَّة:

أولًا: التبيين:

فالتذييلُ إيضاحٌ وتبيين، به انجلاءُ المعانِي، وتبيانُ الحِكَم، فالقرآنُ الكريمُ كتابٌ مبينٌ، آياتُهُ بيناتٌ وحُجَجُهُ ساطعاتٌ، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [النور: ٣٤]، بل إن الهدف الأساسي للتذييل هو البيان، ومن المعلوم أن القرآن يُبيِّن بعضه بعضًا.

تأمل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [آل عمران: ١٠٠، ١٠١].

جملة التذييل: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: وهي بيانٌ للمخرجِ من هذه الفتنِ، والعصمةِ من تلك المكائدِ، فمن يلوذ بجنابه ويُديمُ طرقَ

(١) مذاهب التفسير الإسلامي لجولدزيهر ص ٥ ترجمة د عبد الحليم النجار.

أبوابه ويستمسكُ بكتابه، ينجِّيه من طُرُقِ أهلِ الزيغِ والضلالِ، ويهديه إلى صراطِهِ المستقيمِ.

قال القاسمي: «أي: من يتمسك بدينه الحق الذي بيّنه بآياته على لسان رسوله، وهو الإسلام، والتوحيد، المعبر عنه بسبيل الله، فهو على هدى لا يضل متبعه.

قال الزمخشري: ويجوز أن يكون حثًّا لهم على الالتجاء إليه في دفع شرور الكفار ومكايدهم - انتهى - فالجملة حينئذ تذييل لقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا﴾... إلخ؛ لأن مضمونه أنكم إن تطيعوهم لخوف شرورهم ومكايدهم، فلا تخافوهم والتجؤوا إلى الله في دفع ذلك؛ لأن من التجأ إليه كفاه»[1].

وتأمَّل التَّذْييل في قولِه تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾﴾ [النساء: ١٣٣]، فلماذا أتى بصفة القدرة؟

قال أبو حيَّان: «وأتى بصيغةِ المبالغَةِ في القدرةِ؛ لأنه تعالى لا يمتنعُ عليه شيءٌ أرادَهُ، وهذا تخويفٌ، وبيانٌ لاقتدارِهِ»[2].

ثانيًا: تقريرُ المعاني:

يأتي التذييلُ مقررًا لما سبقه من معانٍ، ومؤكدًا لها، وهذه سمةٌ من سمات البيان القرآني، حيث تتآلفُ المعاني ويعضِّد بعضُها بعضًا. تأمل في ختام الآية التي تدعو للتوبة دائما بالمغفرة والرحمة المؤكدة بأساليب التوكيد؛ لفتح باب الطمع والرجاء واليقين في مغفرة الله والبشارة برحمته، فالمخطئ في أمسِّ الحاجة لهذا التأكيد، ليُقبِل على التوبة ويطمئن قلبه، فما من ذنب في القرآن مهما عَظُم ومهما

(١) محاسن التأويل للقاسمي ص ٩١٢، ويراجع الكشاف، للزمخشري (١/ ٤٢٢).
(٢) البحر المحيط لأبي حيان ٣/ ٣٨٣.

قبح، وما من تقصير أو تفريط، إلا وقد أعقبه القرآن بالدعوة للتوبة، وما من دعوة للتوبة إلا واقترنت وذيلت ببيان وتقرير مغفرة الله ورحمته، تأمل قوله تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠]، وقوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥]، وأفاد التعبيرُ بـ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾: الدوامَ والاستمرارَ، أي كان ولا يَزَالُ(١).

والجمعُ بين هذين الاسمين الجليلين ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ يشيرُ إلى الكرمِ الغامرِ، والفضلِ العميمِ، فهو تعالى مع تجاوزِهِ عن الزلاتِ، وإقالتِهِ العثراتِ، وعفوِهِ عن السيئاتِ، رحيمٌ بعبادِهِ، مُتفضِّلٌ عليهم يغمرُهم بلطفِهِ، ويشملُهُم بكرمِهِ وإحْسَانِهِ، وفي ذلك تقويةٌ لداعِي الرجاءِ في حُصُولِ المغفرةِ، وشحذٌ للهِمَمِ. وتقديمُ المغفرةِ على الرحمةِ لأنَّه بالمغفرةِ تُستدركُ الرحمة، فهي سبيلُها ومُقدِّمتُها، بالمغفرة غَفَرَ لهم ما بَدَرَ من إفراطٍ أو تفريطٍ، وبالرحمةِ بلَّغَهُمْ أعْلَى المراتبِ وَمَنَحَهُم الأجرَ قبلَ تَمَامِ الأعمال، وبالمغفرةِ نجَّاهُم من النيرانِ، وبالرحمةِ أدخلهم الجِنان.

---

(١) قال الإمام السيوطي: «كان فعل ناقص... معناه في الأصل المضي والانقطاع نحو ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾ [التوبة: ٦٩]، وتأتي بمعنى الدوام والاستمرار نحو ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء ١٠٠]، ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨١] أي لم نزل كذلك، وعلى هذا المعنى تتخرجُ جميعُ الصفات الذاتية المقترنة بكان». الإتقان ١/ ١٩٢، وقريب من ذلك ما ذكره الإمام الراغب الأصفهاني: في المفردات ٢/ ٣٢٦.

وفي إيثار صيغة المبالغة ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [صيغة فعول وفعيل] تأكيدٌ وبيانٌ لشمولِ مغفرتِه تعالى وسَعةِ رحمته، وفي ذلك ترجيةٌ لهم.

ومن تقرير المعنى أيضا: التذييل بقولِهِ تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء: ١٢٥].

جملة التذييل: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾: تنويهٌ بمقامِ إبراهيمَ وحثٌّ على اتِّباعِ ملَّتِهِ، فقد اصطفى اللهُ إبراهيمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ واتخذه خليلًا.

قال الزمخشري: «وفائدتُها استطرادٌ لتأكيد وجوب اتِّباع ملَّته؛ لأنَّ مَنْ بَلَغَ مِن الزُّلْفَى عند اللهِ أن اتَّخَذَه خَلِيلًا، كان جديرًا بأن يُتَّبع»(١).

ومن تقريرها ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾ [النساء: ١٣٠] من تذييل. فتأمل كيف ناسب هنا ذكر السعة، تقريرا لما تقدَّم من توسِعَتِهِ.

قال الرازي: «... فهو تعالى واسعُ الرزق، واسعُ الفضل، واسعُ الرحمة، واسعُ القدرة، واسعُ العلم، فلو ذَكَرَ تعالى أنه واسعٌ في كذا لاختصَّ ذلك بذلك المذكور، ولكنه لما ذكر الواسعَ وما أضافه إلى شيء معينٍ، دلَّ على أنه واسعٌ في جميعِ الكمالاتِ»(٢). وناسب ذكر وصف الحكمة، لبيان أنه تعالى حكيم في سعته وفضله على عباده، حكيم في أحكامه وأقداره.

ولتقرير الأحكام: تُذَيَّلُ الأوامرُ بما يُرَغِّبُ فيها ويُحَبِّبُهَا للنفوسِ، وتُذَيَّلُ النواهِي بما يَزْجُرُ عنْها ويُنَفِّرُ منهَا ويُرَهِّبُ من عاقبتِهَا. من ذلك على سبيل المثال

(١) الكشاف للزمخشري ١/ ٣٠١.

(٢) التفسير الكبير للرازي ١١/ ٦٩.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١﴾ [الحجرات: ١١].

قال ابن عاشور: «تذييل للمنهيات المتقدمة وهو تعريض قويٌّ بأن ما نُهوا عنه فُسوق وظلم، إذ لا مناسبة بين مدلول هذه الجملة وبين الجملِ التي قبلها لولا معنى التعريض بأن ذلك فسوق وذلك مذموم ومعاقب عليه، فدلّ قوله: ﴿بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾ على أن ما نهوا عنه مذموم؛ لأنه فسوق يعاقَب عليه ولا تُزِيلُه إلا التوبة؛ فوقع إيجاز بحذف جملتين في الكلام اكتفاء بما دل عليه التذييل»[1].

ومن تذييل القصة المقرر لمعانيها قوله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِۖ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۡۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ١٧٦﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦]، حيث وردت هذه القصة، وجاء التذييل منوِّهًا بأهمية القصص في التفكر والاعتبار.

قال ابن عاشور: «... وهذا تذييل للقصة الممثل بها يشملها وغيرها من القصص التي في القرآن، فإن في القصص تفكرًا وموعظة، فيرجى منه تفكرهم وموعظتهم؛ لأن للأمثال واستحضار النظائر شأنًا عظيمًا في اهتداء النفوس بها وتقريب الأحوال الخفية إلى النفوس الذاهلة أو المتغافلة، لما في التنظير بالقصة المخصوصة من تذكُّر مشاهدة الحالة بالحواسّ، بخلاف التذكير المجرد عن

(١) نفس المرجع ١٤/ ٢٤.

التنظير بالشيء المحسوس»[1].

ثالثًا: جمالُ العبارة:

فالتذييلُ لونٌ بديعٌ من ألوانِ البلاغةِ، به تتألقُ العباراتُ روعةً وجمالًا، وتنسجمُ الحروفُ والأصواتُ سُهولةً وانتظامًا، وتنسابُ الكلماتُ عُذُوبةً وسلاسة، مع تناسُقِ الألفاظِ واتساقِ العِبَارَاتِ، فهو سهلُ المساقِ حَسَنُ الاتساقِ، حُلوُ المذاق، قريبٌ من فهمِ السامعِ، عذبُ المساغِ في الَّلهواتِ والمسامعِ، وإنما يتجلَّى جمالُ العِبارةِ في تناسُبِ الألفاظِ وتناسُقِهَا، وتنوُّعِ الأساليبِ وتَأَلُّقِهَا، وثراءِ المعاني وتأنُّقها، فكلَّما أمعنْتَ النظرَ وأطلتَ التدبُّر وأجلْتَ الفِكَرَ، وجدتَ نفسَك أمام معنى جديدٍ، غير الذي سَبَقَ إلى فهمك أولَ مرَّةٍ، وكذلك حتى ترى للجملةِ الواحدةِ أو للكلمةِ الواحدةِ وُجُوهًا عدَّةً، كُلُّهَا يحتملُها النصُّ وتستوعبُهَا العبارةُ القرآنيةُ، كأنما هي دُرَّةٌ يتيمةٌ تُبهِر الأبصارَ كلَّما نظرتَ إليها من أيِّ ناحيةٍ وجدتَ حسنًا وجمالًا، وروعةً وبهاءً، ولمعةً وضياءً، أو كروضةٍ غَنَّاء في واحةٍ فيحاء، هبَّتْ نسائمُها، فتضَوَّعَتْ رياحينُها، وغرَّدتْ أطيارُها، وتبسمتْ أزهارُها، وتضاحكتْ جداولُها، وتفتَّقتْ ثمارُها، وَأينعَتْ قِطافُها؛ إنها رياضُ القرآن الكريم، وواحةُ الذِّكر الحكيم:

وحديقةُ الفرقانِ ضاحكةُ الرُّبَا ... بالتُّرجُمانِ شَذِيَّةٌ غَنَّاءُ
والوحيُ يقطُرُ سَلْسَلا من سَلْسَلٍ ... واللَّوْحُ والقلمُ البديعُ رَوَاءُ[2]

وتأمَّل جناس الاشتقاق وهو من ألوان البديع في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ١٠٧﴾ [النساء: ١٠٧]. بين ﴿يَخۡتَانُونَ﴾،

(١) نفس المرجع ٦/ ١٤.
(٢) الشوقيات، لأمير الشعراء أحمد شوقي، الهمزية (١/ ٣٥).

و﴿خَوَّانًا﴾ وهذا لونٌ من ألوان البديع، وفيه تنفيرٌ واستهجانٌ لصفةِ الخيانةِ.

والالتفات من التكلُّم للغَيبةِ، مع إظهار اسم الجلالةِ في ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [آل عمران: ١٠٨]: «لإدخال الروع في ضمير السامع وتربية المهابة»(١). مراعاةٌ لمقام الرهبة والإجلال، ولفتٌ للأذهان، ولتستقلَّ الجملةُ؛ فتخرجُ مخرج المثل.

والتعبيرُ بالاسم الظاهر في موضع الإضمار كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾﴾ [النساء: ١٠١]: لبيانِ سببِ هذه العداوةِ، وهو الكفرُ، فهي عداوةٌ لا يُرْجى انقضاؤُها، كَمَا قِيلَ:

كُلُّ الْعَدَاوَاتِ قَدْ تُرْجَى مَوَدَّتُهَا ... إِلَّا عَدَاوَةَ مَنْ عَادَاكَ فِي الدِّينِ

والتعبيرُ بالاسم الظَّاهرِ في مقام الإضمار ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ لتشريفِ وتعظيمِ أمرِ الصلاةِ، وكذلك ليَخْرُجَ التذييلُ مَخْرَجَ المثل، ولهذا حَسُنَ الإظهارُ ليستقلَّ عما قبلَهُ. وكذلك العدول عن الضمير للاسم الظاهر ﴿عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ولم يقلْ عليكم؛ فعبَّر بالاسم الظاهر للتأكيد على أنها لا تُقبلُ إلا من أهلِ الإيمانِ، وأنه حَرِيٌّ بهم أن يقيمُوها فَهِيَ بُرهَانٌ وشِعارٌ على إيمانِهم.

وحَسُنَ فصلُ جملة التذييل عما قبلها: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾ [النساء: ١٠٣] لِما بين الجملتينِ من كمالِ الانقطاعِ؛ فجملةُ التذييلِ خبريةٌ، والتي قبلها جملةٌ إنشائيةٌ طَلَبيةٌ؛ لذَا حَسُنَ الفَصْلُ بينَهُمَا.

(١) فيض الفتاح على حواشي شرح تلخيص المفتاح، لعبد الرحمن الشربيني من شيوخ الأزهر، ٤٠٥

■ **والتقديم والتأخير:**

كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾﴾ [النساء: ١٠٧]: تقديمُ الخيانةِ على الإثمِ لأنهم خانُوا الأمانَةَ وألصقُوا التهمةَ بالأبرياءِ، فَوَصْفُ الخيانةِ لأنهم سَرَقُوا وَأَنْكَرُوا الوديعةَ، والإثم: باعتبارِ تهمةِ البريء.

قال أبو حيان: «وقُدِّمَتْ صفةُ الخيانةِ على صفةِ الإثمِ، لأنها سببٌ له، أو لتواخي الفواصل»[1]، فتقديمُ الخيانةِ على الإثمِ: لترتيبِ أفعالهم؛ فهم خانوا أولًا، ثم افترَوا على الآخرين، وهذا الافتراءُ إثمٌ كبيرٌ، كما أن الخائن آثمٌ، فالخيانةُ إثمٌ.

■ **والطباق:**

في جملة التذييل ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ [البقرة: ٢٤٥].

■ **واللفُّ والنشر المرتب:**

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة: ٥٤]، فقوله: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ يقابله ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ وقوله: ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ يقابله ﴿عَلِيمٌ﴾.

❁ رابعًا: إثراءُ المَعْنَى:

حيثُ يضيفُ التذييلُ معانيَ جديدةً، يستخلصُها مَنْ تدبَّر في تذييل الآياتِ، وأمعَنَ النظرَ في السياقِ، حيث تتدفقُ المعاني، وتتواردُ الخواطر، وتتفتَّقُ الفِكَرُ،

(١) البحر المحيط لأبي حيان ٣/ ٣٥٩ بتصرف.

وتتفجَّرُ ينابيعُ البيان.

■ **تقرأُ النصَّ القرآني:**

فتلقَى فيه ثراءً ووفاءً بالمعنى المرادِ، فهو رسالةُ كلِّ العصورِ وخطابٌ لجميع الأجيالِ؛ معجزة خالدة ورسالة متجددة ونهرٌ مُطَّرِد، وبحرٌ زاخرٌ لا ساحلَ له.

يقول صاحبُ المناهلِ تحتَ عنوان (قصد القرآن في اللفظ مع وفائه بالمعنى): «ومعنى هذا أنك في كلٍّ من جمل القرآن تجدُ بيانًا قاصدًا مقدرًا على حاجة النفوس البشرية من الهداية الإلهية، دون أن يزيد اللفظ على المعنى، أو يقصر عن الوفاء بحاجات الخلق من هداية الخالق، ومع هذا القصد اللفظي البريء من الإسراف والتقتير تجده قد جلَّى لك المعنى في صورة كاملة لا تنقص شيئا يعتبر عنصرًا أصليًّا فيها أو حلية مكملة لها، كما أنها لا تزيد شيئا يعتبر دخيلًا فيها وغريبا عنها، بل هو كما قال الله: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾ [هود: ١]»[1].

كما يأتي التذييل بلطائف المعاني، ودقائق الفوائد من ذلك على سبيل المثال: قوله تعالى: ﴿إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ۝١٧﴾ [التغابن: ١٧].

فقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾: أي شاكرٌ للمحسن إحسانه، حليمٌ بالعباد حيث لا يعاجلهم بالعقوبة مع كثرة ذنوبهم، بل يرحم ضعفَهم ويُمهلهم لعلهم يتوبون، ومِنْ شُكْرِهِ تعالى لعباده مجازاتُه لهم بالأجرِ الجزيلِ على العملِ القليلِ.

(١) مناهل العرفان، للزرقاني ٢/ ٢٣٣.

وقد أشار الشنقيطي: هاهنا إلى لطيفة فقال: «وقوله: ﴿حَلِيمٌ﴾ أي لا يعجل بالعقوبة بل يستر ويتجاوز عن الذنوب، ومجيء هذا التذييل هنا يُشْعِرُ بالتوجيه في بعض نواحي إصلاح الأسرة، وهو أن يقبلَ كلٌّ من الزوجين عملَ الآخر بشكر، ويقابل كلَّ إساءةٍ بحلمٍ ليتم معنى حُسن العشرة، ولأن الإنفاق يستحق المقابلة بالشكر والعداوة تُقابَلُ بالحِلْمِ»[1].

وثراءُ المعنى:

من دلائل عَظَمَةِ القرآن، ومن وجوهِ إعجازِهِ وفنونِ بلاغَتِهِ وينابيعِ عطائِهِ لا تنضبُ معانِيه ولا تنقضي عجائبُه ولا تنْفَدُ خزائنُهُ.

ومع هذا الثراء والتنوع فلا تلقى تناقضًا ولا تلمسُ اختلافًا بين هذه المعاني، بل تراها متآخيةً متلازمةً.

قال البوصيري:

جاءَ النبيُّون بالآياتِ فانصرمتْ ... وجئتَنَا بكتابٍ غيرِ مُنصرمِ
آياتُهُ كلمَا طَالَ المدَى جُدُدٌ ... يَزِينُهُنَّ جمالُ العِتْقِ والقِدَمِ
فالدُّرُّ يزدادُ حُسنًا وَهْوَ منتظمٌ ... وليسَ ينقُصُ حسنًا غيرَ مُنتظمِ[2]

من هنا تتجلَّى فوائدُ الوقوف على لطائف التذييل؛ وذلك لفهمِ المعاني ومعرفة الوجوه. عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ موقوفًا: لا يفقهُ الرجلُ كلَّ الفقهِ حتى يَرَى للقرآنِ وُجُوهًا كثيرةً[3].

---

(١) أضواء البيان للشنقيطي ٨/ ٣٣٠.

(٢) البردة للبوصيري، شرح البردة، تأليف السوسي على، مخطوط لوحة ٢٧.

(٣) المصنف، لابن أبي شيبة ٧/ ١٨٧، والمصنف، لعبد الرزاق ١١/ ٢٥٥ حديث ٢٠٤٧٣، والطبقات الكبرى، لابن سعد ٢/ ٣٥٧.

خامسًا: حُسْنُ التعليل:

قد يأتي التذييلُ لبيان علَّةٍ أو لِتَجْلِيةِ حكمةٍ، ولذلك في القرآن أمثلةٌ كثيرةٌ، منها ما ذكره البقاعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الزمر: ٧]، قال: «ولما كان المراد - كما أشار إليه بكان - الإخبار بجميع الأعمال الكائنة بالفعل أو القوة، حَسُنَ التعليل بقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الزمر: ٧]، أي بصاحبتها من الخواطر والعزوم، وذلك بما دلت عليه الصحبة كل ما لم يبرز إلى الخارج، فهو بما برز أعلم»(١).

ومثال ذلك: التَّذْيِيلُ في قولِهِ تعالى: ﴿ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَسۡكَنَةُۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ١١٢﴾ [آل عمران: ١١٢].

جملة التذييل: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾ وذلك إشارة إلى سبب كفرهم وقتلهم الأنبياء، وهو إصرارهم على العصيان واعتداؤهم، ويمكن أن تكون إشارة إلى جميع ما ذُكِرَ في الآيةِ من ضرب الذِّلَّةِ والمسكنة وغضب الله عليهم وكفرِهِم وقتلِهِم الأنبياءَ بغير حقٍّ. وما مصدرية أي بسبب عصيانهم واعتدائهم، وهذا نشر على ترتيب اللف فكفرهم بالآيات سببه العصيان، وقتلهم الأنبياء سببه الاعتداء»(٢).

---

(١) نظم الدرر للبقاعي ٧/ ٢٣٢، ومثال ذلك أيضًا ما ذكره الألوسي في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ١٩﴾ [الشورى: ١٩]، يراجع روح المعاني للألوسي ١٨/ ٢٥٧.

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور ٤/ ٥٧ باختصار.

وفي حاشية محيي الدين شيخ زاده: «إشارة إلى علة العلة، ولهذا المعنى قال أرباب المعاملات: مَن ابتُلِيَ بترك السنة وقع في ترك الفرض، ومَن ابتُلِيَ بترك الفريضة وقع في استحقار الشريعة، ومَن ابتُلِيَ بذلك وقع في الكفر»(١).

وقال صاحب المنار: «جرَّأهم على ذلك سبقُ المعاصي والاستمرارُ على العداءِ، فتدرَّجوا من الصغائر إلى الكبائر، إلى أكبر الموبقات وهو الكفر وقتل الأنبياء والمصلحين، فصار هذا العصيانُ والاعتداءُ خُلُقًا للأمة، وطبعًا لها يتوارثه الأبناء عن الآباء بلا نكير»(٢). «وهذه الجملة: مؤكدةٌ لما قبلها، فالعصيان والاعتداء هو عين الكفر وقتلهم الأنبياء، ويحتمل أنها ليس مؤكدةً بل هي علةُ العِلَّةِ؛ فعلَّةُ ضَرْبِ الذِّلَّةِ والمسكنة والغضب من الله: كفرُهم وقتلُهُم الأنبياء، وعلةُ الكفرِ والقتلِ: عصيانُهُم أمرَ الله وتجاوزَهم الحدّ»(٣).

والتعبير بالماضي ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا﴾ لإفادة تحقق العصيان، وبالفعل «كان» مع المضارع **﴿وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾** لبيان اعتداءاتهم المتكررة المستمرة بلا توقف، مع مراعاة الفاصلة.

---

(١) حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي ٣/ ١٤٩.

(٢) تفسير القرآن الحكيم المشهور بتفسير المنار للسيد رشيد رضا ٤/ ٧٠ وقد ذكر الأستاذ عبد الكريم الخطيب في كتابه التفسير القرآني للقرآن، وكذلك الشيخ سعيد حوى في كتابه الأساس في التفسير، كلاما طيبا حول هذه الآية وما قبلها، وهو قريبٌ مما ذكرناه وترجع قيمةُ ما كتبه الخطيب إلى أنه كتبه بعد النكسة بثلاثة شهور كما أشار إلى ذلك في تفسيره: «لنتخذ منها أملًا يدفئ صدورنا، ويطمئن قلوبنا، ويخفف آلام جراحنا التي نعانيها من هذا الحدث الذي نعيش فيه في مرارةٍ وألمٍ وقلقٍ... وإننا مطمئنون إلى فهمنا للآية الكريمة، واثقون من معطياتها التي لا تتخلف أبدا» نفس المرجع ١/ ٥٥٩.

(٣) حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، للشيخ محمد الأمين بن عبد الله الْأُرَمِي العلوي الهرري الشافعي ٥/ ٦٥.

مثال آخر: التَّذْيِيلُ في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَوٰةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ الصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾ [النساء: ١٠٣]. أي فرضًا محدَّدَ الأوقات، لا يجوزُ إِخْرَاجُها عن أوقَاتِهَا في شيء من الأحوالِ، بل لا بد من أدائِهَا في أوقاتِها سَفَرًا وحَضَرًا، وأَمْنًا وخَوْفًا.

فقد جاءت جملةُ التذييل مؤكدةً ومقررةً لما قبلها، ومبينةً الحكمة في هذه الرخصة، وهي التمكنُ من إقامة الصلاة التي لها أوقاتُها المعلومةُ، قال ابن عاشور: «والجملةُ مسوقةٌ مساقَ التعليل للحرصِ على أدائها في أوقاتها»[(١)].

سادسًا: حُسْنُ الختامِ:

كما يأتي التذييل إيذانًا بتمام الكلام، فيتضَوَّعُ منه مسكُ الختام، ويفوحُ عبقُهُ، فإنه آخرُ ما يبقى في الأذهانِ، ولِذا تفنن فيه الأدباء وبرعوا فيه «لأنه ربما حفظ من دون سائر الكلام، فيتعين أن يجتهد في رشاقته وحلاوته وجزالته»[(٢)]. فكما أن لحُسن المطلع روعتَه ووقعَه، كذلك للخاتمةِ وقعُها في النفوسِ، وروعتُها في القلوبِ، وأثرُها الذي يبقَى في الأذهانِ؛ فهي آخرُ عهدِ المستمِعِ بالمتكلِّمِ.

وحين نقرأ كلامَ الباري نلمسُ ذلك الإحكامَ، ونستشعرُ تلك الروعةَ، ونتذوقُ هذه العذوبةَ والحلاوةَ في كل ما ورد ختامًا لقصة أو مقطع أو سورة، حيث يأتي السياق معقِّبا أحسن تعقيب، فيأتي بتمام الموضع واكتماله، ويسوق نتائجه ويبرزُ أبعاده، كما يُجَلِّي عِبَرَهُ وعظاتِهِ، وفوائدَهُ وثمراتِهِ.

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور ٥/ ١٨٩.

(٢) الفوائد المشوق لابن القيم ص ١٣٨.

مثال ذلك: قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾﴾ [المائدة: ١٢٠].

قال ابن عاشور: «تذييلٌ مؤذنٌ بانتهاء الكلام، لأنّ هذه الجملة جمعت عبودية كلِّ الموجودات لله تعالى، فناسبت ما تقدَّمَ من الردِّ على النصارى، وبيَّنت أنَّ جميعها في تصرّفه تعالى، فناسبت ما تقدّم من جزاء الصادقين...»[(١)].

ومن الأمثلة على ذلك: المناسبة بين ختام سورة الأنعام وما حوته، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأنعام: ١٦٥].

قال ابن عاشور: وجملة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تذييل للكلام وإيذان بأنّ المقصود منه العمل والامتثال؛ فلذلك جمع هنا بين صفة ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ ووصف ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لينا سب جميع ما حوته هذه السّورة. وبهذا ينتظم تذييل السورة بمضمونها؛ حيث تقرير العقيدة الصحيحة وترسيخها في القلوب.

سابعا: الاحتراس:

وهو أن يكون الكلام محتملًا لشيء بعيد، فيؤتى بما يدفع ذلك الاحتمال[(٢)]،

---

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور ٤/ ٣٥٣. باختصار. ويراجع التحرير والتنوير لابن عاشور ٥/ ٢١٩، و١٠/ ٤١. ويراجع: التفسير الموضوعي لسورة الأنعام، للمؤلف، ولقد عُنِيَ العلماءُ بإبراز الصلة بين نهاية السورة ومضمونها كما فعل البقاعي وأبو السعود وسيد قطب وسعيد حوَّى وغيرُهم وللإمام السيوطي رسالةٌ وجيزةٌ بعنوان «مراصد المطالع في تناسب المطالع والمقاطع» وهي مطبوعةٌ.

(٢) البرهان في علوم القرآن ٣/ ٦٤ – القسم الثاني والعشرون الاحتراس، ويراجع: الإتقان ٢/ ١٩٩، والإيضاح في علوم البلاغة ص١٩٢ النوع السابع عشر التكميل ويراجع: إعجاز القرآن للباقلاني ١/ ٩٥.

وقيل: «توق عن إيهام خلاف المقصود»[1].

ومثال ذلك الاحتراس في قولِهِ تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران: ١١٠]، حيث جملةُ التذييل: ﴿مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ وفيها احتراسٌ لدفعِ ما قد يُتوهَّمُ من انتفاء الإيمان عن سائر أهل الكتاب، فإن منهم من آمن، وإنما يسري النفيُ على أكثرهم الذين آثروا الكفر، وثبتوا عليه وهذا من دقَّةِ تعبير القرآن، وإنصافه في الحكم على الآخرين، حيث بيَّن أن من أهل الكتاب من اختار طريق الإيمان، وفي هذا درسٌ للدعاةِ والمصلحين أن يتحرَّوا الدقةَ في الحكم، ويتجنبوا التعميم في الأحكام، بِلا دليلٍ.

مثال آخر: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾ [النساء: ١٠٢].

جاءت جملة التذييل احتراسًا ودفعًا لما قد يتوهم. قال أبو السعود فقال: «﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾: تعليلٌ للأمر بأخذ الحذر، ﴿أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ بأن يخذلهم وينصركم عليهم فاهتموا بأموركم، ولا تهملوا في مباشرة الأسباب كي يحل بهم عذابُهُ بأيديكم، وقيل: لما كان الأمرُ بالحَذَرِ من

(١) فيض الفتاح على حواشي شرح تلخيص المفتاح، لعبد الرحمن الشربيني ص ٤٠٤.

العدو مُوهِمًا لتوقع غَلَبَتِهِ واعتزازِهِ، نَفَى ذلك الإيهامَ بأن الله تعالى ينصرُهُم ويُهينُ عدُوَّهُم لتقوَى قلوبُهم»[1].

ومن أمثلة الاحتراس في تذييل الآيات قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤﴾ [هود: ٤٤]. إذ الدعاء عليهم مشعِرٌ بأنهم مستحقون الهلاك احتراسًا إذ قد يُتَوَهَّمُ أن الهلاك «يشمل من يستحق ومن لا يستحق، فأكَّد بالدعاء على المستحقين»[2].

ثامنا: التنوعُ والتفننُ:

كذا من فوائد التذييل التنوعُ في الأساليب والتفننُ في الكلام، وذلك: بإبراز المعنى الواحد في قوالبَ متعددةٍ وصياغاتٍ متنوعةٍ وفي سياقاتٍ مختلفةٍ؛ لتقريرِ هذهِ المعاني وترسيخِها، مع مراعاةِ السياقِ الذي به تنتظِمُ المعانِي، ونجد في تذييلات الآيات ذلك فتارة يقدم صفة وتارة يؤخرها على ما اقترنت به، وتارة يختم الآية بتعليل أو رجاء، ثم يختم ما يليها بتعليل آخر أو رجاء، وتارة يختم بوصف ثم يعقبه بوصف آخر، حتى اشتملت التذييلات على معظم أسماء الله الحسنى، وختمت ببيان جميع مقاصد القرآن، وغير ذلك من وجوهٍ ومعانٍ، وهذا من خصائص الأسلوب القرآني، كما قال ربنا ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٦٥]، ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٨]، ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ﴾ [الإسراء: ٨٩].

فتصريف الآيات مجيء المعاني في صور متعددة، وسياقات متنوعة تقريرًا لها

(١) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود ٢/ ٢٢٨. وحاشية القونوي على تفسير البيضاوي لعصام الدين إسماعيل بن محمد الحنفي القونوي ٧/ ٢٨٦.

(٢) روح المعاني للألوسي ٢٠/ ٣٠٢.

وإثراء وبيانًا فوق بيان، وصدق ربنا إذ يقول: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ٢٣﴾ [الزمر: ٢٣].

تاسعا: إخراج الكلام مخرج المثل:

فالملاحظ أن جملة التذييل مع ارتباطها الوثيق بما قبلها، إلا أنها مستقلة بمعناها وتركيبها ودلالتها، بحيث يمكن اقتباسها بل يحسن ويجملُ ذلك، كما هي عادة الخطباء والأدباء، وقد سبق تقسيم ابن أبي الأصبع التذييل لقسمين: «قسمٌ لا يَزِيدُ على المعنى الأَول، وإنما يؤتَى به للتوكيدِ والتحقيقِ، وقسمٌ يُخْرِجُهُ المتكلمُ مخرجَ المثلِ السائرِ ليحققَ به ما قبله»(١).

ومن ذلك التَّذْيِيلُ في قولِهِ تعالى: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٨﴾ [آل عمران: ١٠٨]. وأغلب تذييلات القرآن خرجت مخرج المثل، فتصلح لاقتباسها في المواعظ والحوارات والخطب.

﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ١٢٣﴾ [هود: ١٢٣]، ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٤٦﴾ [فصلت: ٤٦]، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ

(١) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر لابن أبي الأصبع باب التذييل ص ٣٨٧، ويراجع في ذلك: خزانة الأدب وغاية الأرب، لتقي الدين أبي بكر علي بن عبد الله الحموي ١/ ٢٤٢، ومعجم البلاغة العربية، د. بدوي طبانة ص ٢٣٤، والمعجم المفصل في علوم البلاغة البديع والبيان والمعاني د. إنعام نوال عكاوي ص٣٠٠، وجاء في التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي: «التذييلُ: تعقيبُ جملةٍ بجملةٍ مشتملةٍ على معنَاهَا للتأكيدِ «التوقيف على مهمات التعاريف لمحمد عبد الرؤوف المناوي ١/ ١٦٨. ويراجع فيض الفتاح على حواشي شرح تلخيص المفتاح، لعبد الرحمن الشربيني من شيوخ الأزهر، ص ٤٠٣.

كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْۗ وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٢٧]، ﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء: ٨١]. جاء في ختام عهد أبي بكر لعمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا بالخلافة اقتباسه[١] لقوله تعالى ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ﴾[٢]. وكان ختام كثير من الخطب: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨][٣].

❊ ❊ ❊

(١) الاقتباس: تضمين الكلام نثرًا أو نظمًا شيئًا من قرآن أو حديث»، التوقيف على مهمات التعاريف، عبد الرؤوف بن تاج العارفين المناوي(١٠٣١هـ)، ص٨١.

(٢) الكامل في اللغة والأدب للمبرد (١/ ١٤).

(٣) جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، أحمد زكي صفوت، (٢/ ٤٥١).

المبحث الثاني

أصولُ الوقوفِ على لطائفِه

تحدثت في المبحث السابق عن فوائد التذييل، وفي هذا المبحث أبيِّن أصول الوقوف على لطائف التذييل، فأقول والله المستعان: للوقوفِ على بلاغةِ التذييلِ ومعرفةِ حِكَمِهِ وأسرارِهِ أصولٌ مهمّةٌ، لا بدَّ من مراعاتِها، ومصاحبتِها حينَ نجولُ في رياضِ القرآن، ونُجيلُ النَّظرَ في تذييلاتِهِ، وهنا نشيرُ إلى أهمِّ هذه الأصولِ، فنقولُ – ومِنَ اللهِ القَبُولُ –:

أولًا: مراعاةُ مقاصد القرآن الكريم:

دراسةُ مقاصدِ القرآنِ مما يُعينُ على تنسُّمِ عِطرِهِ وشذاه، وتذوُّقِ لطائفِهِ وقطوفِه، والتحقُّقِ من دلالاتِهِ والتعمُّقِ في هداياتِهِ، والتبحُّرِ في دقائقِ معانِيهِ.

بل إن كثيرًا من التذييلات يكشف لنا عن مقاصد القرآن عمومًا ومقاصد مواضيعه (أحكامه، وقصصه، وأمثاله، ومواعظه، ووصاياه).

لعلكم تعقلون (سبعة مواضع)، لعلكم تتقون (ستة مواضع)، لعلكم تشكرون (في ثمانية مواضع)، لعلكم تفلحون (أحد عشر موضعًا)... وهكذا.

بل يلاحظ التناسب بين هذه المقاصد، ففي سورة الأنعام آيات الوصايا العشر قال تعالى: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ

ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الأنعام: ١٥١-١٥٣]، فالتعقل طريق التذكر والتذكر طريق التقوى. فثمرة التعقل والتذكر تقوى الله تعالى. ونظيره ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الزمر: ٢٧، ٢٨].

۞ ثانيًا: الدرايةُ باللغةِ العربيةِ وأساليبها وفنونِهَا:

فمن المؤهّلاتِ الأساسيةِ لمن يدرسُ التذييلَ وغيرَهُ من عُلُوم البلاغَةِ، أن يكون على درايةٍ بلغةِ العربِ وأساليبِهم وفنونِهم في الكلام.

قال مجاهدٌ: «لا يحلُّ لأحدٍ يُؤْمِنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ أن يتكلمَ في كتابِ اللهِ إذَا لم يكُنْ عالمًا بلغاتِ العربِ»(١).

فجملة التذييل لا بد أن تكون مستقلة عما قبلها لفظًا ومعنى، وهذا أمرٌ يحتاج من الباحث لدراية بقواعد اللغة، فليس كل نهاية آية تذييلًا، إذ قد يكون خبرًا لمبتدأ، أو جوابًا لشرط سابق، أو حالًا مما قبله.

والنظر في هذا يمكِّن الباحث من معرفة التذييل من غيره، فلا يمر بآية ويغفل عن ختامها بتذييل، أو يقول: إنها ختمت بتذييل وما هو بتذييل، كذلك إبراز جماليات التذييل يحتاج لاطلاع على فنون البلاغة؛ إذ التذييل لون من ألوان البديع، وبعضهم يذكره في أغراض الإطناب وفنونه.

۞ ثالثًا: مراعاةُ قواعدِ التفسيرِ وأصوله:

قواعدُ التفسيرِ هِيَ: أحكامٌ كليةٌ تُعِينُ على فهمِ القرآنِ واستنباطِ أحكامِهِ،

(١) البرهان في علوم القرآن، للزركشي ١/ ٢٩٢، والإتقان في علوم القرآن للسيوطي ١/ ٤٤٣.

ولا بد لمن طَرَقَ بَابَ التفسيرِ أن يكون على درايةٍ بقواعِدِهِ التي يُسْتَضَاءُ بها في هذا الطريق؛ فمن خلالها يسيرُ المفسِّر على بيِّنةٍ من أمرِهِ، ويستعينُ بمعرفتِهَا على فهمِ كلامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ واستخلاصِ المعاني، واستنباطِ الأحكامِ، والوقوفِ على العِبَرِ والفوائِدِ، فينبغي مراعاة قواعد التفسير عامة، فضلًا عن مراعاة القواعد المتعلقة بالتذييل خاصةً.

ومنها على سبيل المثال: مراعاةُ السياقِ القريبِ والبعيدِ، أعنِي السياقَ العامَّ للسورةِ، والسياقَ القريبَ للآيةِ موضع البحث، فالتذييلُ جزءٌ من الآيةِ؛ لذا ينبغي تدبُّرُها في سياقِها. الأصلُ هو القولُ بمقتضَى الظاهرِ، فلا نقولُ بالعدولِ إلا بقرينة، في العدولِ عن مقتضى ظاهِرِ الكلامِ ما يَنُمُّ عن دقائقَ عجيبةٍ ولطائفَ بليغةٍ.

۞ رابعًا: النظرة الكلية للسورة:

كما ينبغي استحضارُ مقاصد القرآن بوجه عامٍّ؛ كذلك على المفسر أن يقف أمام مقاصد السورةِ ومعالمها؛ فإنَّ هذا مما يفتحُ له آفاقا رحيبةً في فهم لطائفِ التذييلِ، وهذا يتمُّ من خلال تلاوةِ السورةِ وتدبُّرها ومدارستها، مع مراعاة النظرة الكلية الشاملة التي تعين على فهم مقاصدها والوقوف على محورها العام الذي تنتظمُ في سلكِه آياتُها وتدُورُ في فُلْكِهِ موضوعاتُها، مما يساعدُ في جني لطائفِ التذييلِ، والأمرُ يتطلبُ القراءةَ المتأنيةَ للسورةِ، مع تكرارِ القراءةِ بتدبُّرٍ وإمعانٍ.(١)

وقد قرر ذلك المبحث الإمامُ الشاطبيُّ فقال: «اعتبار جهة النظم في السورة لا يتم به فائدة إلا بعد استيفاء جميعها بالنظر؛ فالاقتصار على بعضِها غير مفيد

(١) يراجع في هذا الموضوع: مبادئ أساسية في فهم القرآن، لأبي الأعلى المودودي ص ٤٩: ٥١، ويراجع ما ذكره السيوطي حول هذا المعنى في الإتقان ٢/ ١٢٨ وما ذكره الدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه النبأ العظيم للأستاذ ص ١٥٣، ١٥٤.

للمقصود منها، كما أن الاقتصار على بعض الآية في استفادة حكم ما لا يفيد إلا بعد كمال النظر في جميعها»[1].

تأمل في سورة الأنبياء: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الأنبياء: ٥١].

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنبياء: ٧٨، ٧٩]، ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنبياء: ٨١، ٨٢]: تلحظ عناية الله تعالى ورعايته ولطفه وإحاطة علمه وحفظه لأنبيائه عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، ولم تتكرر هذه الصيغ وتجتمع في سورة أخرى، وفي هذا مناسبة لعنوان السورة (الأنبياء) ومقصودها، بيان إكرام الله ولطفه بهم.

۞ خامسًا: النظر في السياق:

فمن الأمور الأساسية للناظر في تذييل الآيات أن يُنْعِمَ النظرَ في السياق السابق واللاحق، حتى يقف على لطائف التذييل وفوائده: عن مسلم بن يسار قال: إذا حدثتَ عن اللهِ حديثًا فقفْ حتى تنظُرَ ما قبلَهُ وما بعدَهُ[2].

وقال الزركشيُّ في البحر المحيط: «... والسياقُ يرشِدُ إلى تبيين المجملات

---

(١) الموافقات، للشاطبي ٣/ ٤١٥. ويراجع: مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، للبقاعي ص١٥٥، ويُراجعُ ما ذكره السيوطيُّ في الإتقان حول هذا المعنى: الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي ٢/ ١٢٨.

(٢) فضائل القرآن للقاسم بن سلام (٢/ ٢٦١ حديث ٦٩٥).

وترجيح المحتملات وتقرير الواضحات، وكلُّ ذلك يُعْرَفُ بالاستعمال».

وقال في البرهان: «والذي ينبغي في كل آية أن يبحث أول كل شيء عن كونها مكملة لما قبلها أو مستقلة، ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها، ففي ذلك علمٌ جمٌّ، وهكذا في السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سيقت له»(١).

تأمل التذييل في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [آل عمران: ٩٨].

لما ختم الآية السابقة بقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ناسب أنْ يُنكِرَ على كفارِ أهل الكتابِ كفرَهم بآيات الله مع قيامِ الحُجَّةِ عليهم، فكفرهم أشنعُ وأقبحُ من كفر غيرهم لأنهم أوتوا الكتاب فكفروا جحودًا وعنادًا، وبغيا وحسدًا، «فأخبر جل ثناؤه عنهم أنهم متعمِّدون الكفر بالله وبرسوله على علم منهم، ومعرفةٍ من كفرهم»(٢).

وتأمَّل التذييل بقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١]، كيف جاء بعده الأمر بالاعتصام ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وتأمَّلْ حسن وروعة الترتيب بين التذييلات: التَّذْيِيلُ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾ [النساء: ١١٦].

التَّذْيِيلُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي (١/ ٣٨) ويراجع البحر المحيط في أصول الفقه للزركشي (٦/ ٥٢).
(٢) جامع البيان للطبري ٦/ ٥٢.

خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا ﴾ [النساء: ١١٩]. لما بيّن الوصف والحال بيّن العاقبة والمآل، فهذا الضال عاقبته الخسران.

۞ سادسًا: التذوُّق وصفاءُ الذهنِ ومعايشةُ القُرْآنِ مع الاستعانة بالله:

الوقوفُ على لطائف التذييل، وإدراكُ معانيه ومراميه، يحتاجُ إلى تذوُّقٍ سليمٍ، وسجيَّةٍ نقيَّةٍ.

قال السَّكَّاكيُّ: «اعلم أن شَأْنَ الإعجَازِ عجيبٌ، يدركُ ولا يمكنُ وصفُه، كاستقامةِ الوزنِ تدركُ ولا يمكنُ وصفُها، وكالمَلاحة، ومُدْرَكُ الإعجاز عندي هو الذوق ليس إلا...»[(١)].

ومن الأمثلة على ذلك: قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٣٨﴾ [المائدة: ٣٨]، حيث وقع التذييلُ بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾.

قيل: عزيزٌ في حكمه فهو الغالب القاهر، وفي شرعه الحكيمِ العزةُ والكرامة والأمنُ والاستقامةُ، فهو عزيزٌ في شرع الرّدع، حكيم في إيجاب القطع.

وقيل: عزيزٌ في انتقامِهِ من السارقِ وغيرِهِ مِن أهلِ المعصيةِ، حكيمٌ في فرائضِهِ وحدودِهِ، روي أنَّ أعرابيًّا سَمِعَ قارئًا يقرأ: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ﴾ إلى آخرها، وَخَتَمَهَا بقوله: والله غفور رحيم، فقال: ما هذا كلامُ فصيحٍ، فقيل له: ليس التلاوةُ كذلك، وإنما هي ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ فقال: بخٍ بخٍ: عزَّ، فَحَكَمَ، فَقَطَعَ[(٢)].

وقال ابن الجوزي في مقدمة تفسيره لسورة التوبة – براءة –: «وقد نُقل عن

(١) مفتاح العلوم للسكاكي ١/ ١٨١، ويراجع الإتقان في علوم القرآن، للإمام السيوطي ١/ ٤٤٤.
(٢) زاد المسير لابن الجوزي ٢/ ٢٠٨، والبحر المحيط لأبي حيان ٤/ ٤٢٥،

بعض العرب أنه سمع قارئًا يقرأ هذه السورة، فقال الأعرابي: إني لأحسب هذه من آخر ما نزل من القرآن، قيل له: ومن أين علمت؟ فقال: إني لأسمع عهودًا تُنْبَذُ ووصايا تُنَفَّذ»[1]. وهكذا أدرك الأعرابي أن السورة من أواخر ما نزل، وذلك بسليقته الحاضرة وذوقه الصافي.

كذلك ذكر بعض المفسرين قصةً أخرى لأعرابي تلي على مسامعه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٠٨ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٠٩﴾ [البقرة: ٢٠٨، ٢٠٩]، فختمها القارئ خطأ «فاعلموا أن الله غفور حكيم»، فأنكر الأعرابي ذلك وقال بفطرته النقية وقريحته الصافية: ما هكذا نزلت! «إن كان هذا كلام الله فلا يقول: كذا، فالحكيم لا يذكر الغفران عند الزلل!»[2].

من هنا ندرك أثر صَفَاءِ الذِّهن في تذوق كلام الله، وتنسُّم عَبَقِهِ وَشَذَاهُ، فهذا أعرابي عاش حياةً فطريةً في البادية جعلت منه صاحب ذهنٍ وقّاد، وسمع مرهف، وتدبُّرٍ واعٍ لكلام الله تعالى، فتدبر القرآن لا يتمُّ إلا بصفاءِ ذهنٍ وحضورِ قلبٍ وإلقاءِ سمعٍ، والتذييلُ من دقائقِ المعاني ولطائفِ الأساليبِ التي تحتاجُ في استجلائِها إلى تجريدِ الفكرِ واستجماع القلبِ، فلا بدَّ من حضورِ القلبِ وصفائِهِ حتى يرى تلك المعاني بوضوحٍ وجلاءٍ، ويحيا بها عملا وسلوكا، فكلما تفرَّغَ القلبُ من همومِ الدنيا ومشاغِلِهَا، وطَهُر من التعلُّقِ بها وجعل الآخرةَ همَّه وشُغلَه، تَجَلَّتْ له المعاني وأقبلتْ عليه اللطائفُ وَحَضَرَتْهُ الفوائدُ.

(١) نفس المرجع ٣/ ١٤٤.

(٢) الكشاف، للزمخشري، (١/ ٢٨٠)، والتفسير الكبير، الرازي (٥/ ٣٥٤)

قال الزَّرْكَشِيُّ في البرهان: «اعلم أنه لا يحصُلُ للناظرِ فهمُ معاني الوحي، ولا يظهرُ له أسرارُهُ وفي قلبه بدعةٌ، أو كِبرٌ، أو هوى، أو حبُّ الدنيا، أو وهو مُصِرٌّ على ذنبٍ أو غيرُ متحققٍ بالإيمانِ أو ضعيفُ التحقيقِ أو يعتمدُ على قولِ مُفَسِّرٍ ليس عنده علمٌ أو راجعٌ إلى معقولِهِ، وهذه كلُّهَا حُجُبٌ وموانعُ بعضُها آكَدُ من بعض»[(١)].

كذلك: واجبُ من ينهضُ لهذه المهمةِ الجليلةِ الشأنِ مهمةِ الوقوف على تذييلات القرآن: أن يتعايش مع القرآن بقلبه ووجدانه وروحه وعاطفته، وَيَتَمَثَّلَ القرآنَ الكريمَ في جميع شؤونه وسائر أحواله، [(٢)]، فمعايشةُ القرآنِ الكريمِ: مِنْ أعظمِ السُّبُلِ إلى فهمِ أحكامِهِ والوقوفِ على معانيه وإدراك حِكَمِهِ ومراميه، ومن تأمَّل على سبيل المثالِ في العواملِ التي أعانت الصحابة على التعمُّق في فهمِ كلامِ الله؛ لوجد من أهمِّها معايشتُهُمْ للقرآن، وحياتُهُم في ظلاله يتنسَّمُون عبيره وشذاه، ويترسَّمون سبيلَهُ وهُداه، ويقتبسون من أنواره، ويقتطفون من أزهاره، ويجتنونَ من ثماره، ولن تتفتح لنا أكمامُ التذييلاتِ، ولن تتفتَّق لنا الثمراتُ إلا حين نتعايش مع كتاب الله تعالى تلاوةً وتدبُّرا، وعلمًا وعملًا، ودعوةً وتربيةً، ولا بد مع ذلك

---

(١) البرهان في علوم القرآن، للزركشي ٢/ ١٨٠، والإتقان في علوم القرآن، للسيوطي ٢/ ٤٧٩. ويراجع: أخلاق حملة القرآن، للآجُرّي ٤٠ (بتصرف).

(٢) كما كان نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعيشُ بالقرآنِ ويحيا بالقرآنِ ويتنفَّسُ بالقرآن، فكان القرآنُ له زادا، وسراجا، وروحا، ومنهاجا، فالقرآنُ حياةُ القلوبِ، ونورُ الدروبِ، ومِنْهَاجُ الحياةِ، روى الإمام مسلم في صحيحه عَنْ سَعْدِ بْنِ هِشَامِ ابْنِ عَامِرٍ: أنه سأل أُمَّ المؤمنين عائشة: قال لها يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أَنْبِئِينِي عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَتْ: (أَلَيْسَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟) قَالَ: قُلْتُ بَلَى، قَالَتْ (فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْقُرْآنَ) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة اللّيل، ومن نام عنها أو مرض – ١/ ٥١٢ حديث ١٣٤١.

كله من الاستعانة باللهِ تعالى الذي أَمَرَنَا اللهُ بتدَبُّرِ كتابِهِ، وإمعانِ النظرِ في مبانِيهِ ومعايشةِ معانِيه وتذوُّقِ أساليبِهِ وتتبُّعِ تراكيبِهِ؛ لاستنباطِ الأحكامِ، واستجلاءِ المعاني.

❊ ❊ ❊

الفصل الثاني

فنون التذييل وسماته

المبحث الأول

من فنون التذييل في القرآن

بيَّنا فيما سبق، فوائد التذييل، وأصول الوقوف على لطائفه، وهنا نبين فنونَه، وسماته، والمقصود بفنونه: أنواعه، والسمات هي خصائصه، والغرض من هذا المبحث، زيادة توضيح معنى التذييل، وإبراز لطائفه وجمالياته.

للتذييل في القرآنِ: أنواعٌ كثيرةٌ متنوعةٌ، وألوانٌ رائعةٌ ماتِعةٌ، تنمُّ عن حُسنٍ وجمالٍ، وبهاءٍ وجلالٍ، وفصاحةٍ وبيانٍ، منها:

أولًا: التتميم:

«وهو أنْ يؤْتَى في كلامٍ لا يُوهِمُ غيرُ المرادِ بفَضْلَةٍ تُفِيدُ نُكْتَةً»[(١)]. ومثاله قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾ [البقرة: ١٦]، «قيل: لما لم يكن قوله تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ﴾ مفيدًا لذهاب رؤوس أموالهم، أتبعه بقوله: ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾، فكمُلَ المعنى بذلك، وتمَّ به المقصودُ»[(٢)]، وإن صح المعنى بدونه، ولكن أفاد معنى متممًا.

---

(١) الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، النوع الثامن عشر ٢/ ٧٥. ويراجع الإيضاح في علوم البلاغة للقزويني (٣/ ٢١٣)، والفضلة كالحال والمفعول ونحوه. وعروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح لتقي الدين السبكي (٧٧٣)، (١/ ٤١٦). فيض الفتاح على حواشي شرح تلخيص المفتاح، لعبد الرحمن الشربيني ص ٤٠٥

(٢) البحر المحيط، لأبي حيان ١/ ٨٠.

وجاء في الطراز: «التتميم: الإتيان بجملة عقيب كلام متقدم، لإفادة التوكيد له والتقرير لمعناه، ومثاله قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ [سبأ: ١٧] فقوله: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ إنما ورد على جهة التوكيد، لما مضى من الكلام الأول، ومثاله: قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ [الأنبياء: ٣٤] ثم قال: ﴿أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾[1]».

ثانيًا: التصدير:

وهو التناسب اللفظي والمعنوي بين صدر الآية وعجزها، وهو من رد العجز على الصدر، ومثاله قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [آل عمران: ٨٦]. فجاء ختام الآية مناسبا لأولها.

قال الشيخ أبو زهرة: «ذيَّل اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الآية بهذا النص الحكيم للإشارة إلى أنهم ظالمون، فهم ظلموا أنفسهم، وظلموا الرسول، وظلموا الحقائق وطمسوا على بصائرهم، فلا يمكن أن تدخل الهداية إلى قلوبهم»[2].

وقوله تعالى: ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨]. وهذا من أدب الدعاء، ومن باب التوسل لله بأسمائه، وقد بدأت الآية بالطلب (وهب) وختمت باسم الله الوهاب، بما يزيد العبد رجاء لربه، فضلًا عن التوسل بأسماء الله تعالى. وقد لا حظت في القرآن الكريم ختام الأدعية بأسماء الله الحسنى، سواء في أدعية الأنبياء أو الصالحين أو الأدعية التي ذكرها القرآن بإطلاق، وهذا يدل على وحدة المنهج، تأمل على سبيل المثال دعاء إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ

(١) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة المؤيد بالله ٧٤٥ه (٣/ ٢٠١).
(٢) زهرة التفاسير، الشيخ محمد أبو زهرة ٣/ ١٣٠٦.

إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ [البقرة: ١٢٧ - ١٢٩]، ودعاء امرأة عمران ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾﴾ [آل عمران: ٣٥].

ودعاء موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأعراف: ١٥١]، ودعاء زكريا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأنبياء: ٨٩]. وهكذا نلمس من خلال التذييل وحدة منهج الأنبياء والصالحين في الدعاء.

ومثاله أيضًا التَّذْييلُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء: ١١٣]. فبدأت ببيان وجوهٍ لفضل الله على نبيه، وختمت ببيان عموم فضله تعالى على نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا من رد الصدر على العجز، تقريرًا للمعنى وإثراء له، فضلًا عن جمال النظم.

قال الرازي: «وهذا من أعظم الدلائل على أن العلم أشرف الفضائل والمناقب»[1].

ثالثًا: التوشيح:

أن يكون معنى الآية مشيرًا إلى تذييلها، ومثَّلُوا له بقوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ

(١) التفسير الكبير، الرازي (١١/ ٢١٦)، ورد الصدر على العجز: أن يجعل أحد اللفظين المكرّرين، أو المتجانسين، أو الملحقين بهما في أوّل الفقرة، والآخر في آخرها. عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح لتقي الدين السبكي (٧٧٣)، (٢/ ٢٩٣).

﴿ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [يس: ٣٧].

قال ابن أبي الأصبع: «فإن من كان حافظًا لهذه السورة متفطنًا إلى أن مقاطع آيِهَا النونُ المرادفةُ، وسمع في صدر الآية انسلاخ النهار من الليل، علم أن الفاصلة مظلمون؛ لأن من أسلخ النهار عن ليله أظلم: أي دخل في الظلمة، ولذلك سمي توشيحًا، لأن الكلام لمَّا دل أولُهُ على آخِرِهِ نَزَلَ المعنى منزلةَ الوشاح، ونزل أولُ الكلامِ وآخرُهُ منزلةَ العاتِقِ والكشحِ، اللذين تحوط عليهما الوشاح»[(١)].

ومثاله قوله تعالى فتبارك الله ﴿ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: ١٤].

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّه قال: لمَّا نزلتْ هذهِ الآيةُ قال عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هكذا نزلَ يا عمرُ [(٢)].

وقال مقاتل والزجاج: كان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إذْ أُنْزِلَتْ عليه هذه الآية: ﴿ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ﴾ فقال عمر: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾، فقال النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**هكذا أُنْزِلَتْ عَلَيَّ**»[(٣)]وروي مثل ذلك عن عَبْدِ اللهِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي سَرْحٍ، كَانَ قَدْ تَكَلَّمَ بِالْإِسْلَامِ، فَدَعَاهُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ يَكْتُبُ لَهُ شَيْئًا، فَلَمَّا نَزَلَتِ الْآيَةُ التي في المؤمنين

(١) تحرير التحبير، لابن أبي الأصبع ص ٣٥٨.
(٢) تفسير مقاتل بن سليمان (٣/ ١٥٣)..
(٣) تفسير مقاتل بن سليمان (٣/ ١٥٣)، وبحر العلوم، السمرقندي (٢/ ٤٧٦)، وعزاه السيوطي: ٦/ ٩٤ إلى الطبراني وابن مردويه.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ﴾ [المؤمنون: ١٢] أَمْلَاهَا عَلَيْهِ فَلَمَّا انْتَهَى إلى قَوْلِهِ ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤] عَجِبَ عبدُ الله من تَفْصِيلِ خَلْقِ الإنسان فقال: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ فَقَالَ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هَكَذَا أُنْزِلَتْ عَلَيَّ...**»[(١)].

۞ رابعًا: التمكين:

وهو أن تمهد قبلها تمهيدا تأتى به الفاصلة ممكَّنة في مكانها مستقرة في قرارها مطمئنة في موضعها، متعلقا معناها بمعنى الكلام كله تعلقًا تامًّا، بحيث لو طُرِحَت اختلَّ المعنى واضطرب الفهم[(٢)].

مثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب: ٢٥]، فلقد مهَّد لهذا التذييل بما يدلُّ عليه أبلغ دلالة، فلقد رد الله الأحزاب ففرَّق جمعَهم وشتت شملَهم، ولم يتحققْ لهم ما رَمَوا إليه من هذا الغزو، وكفى الله المؤمنين القتال.

قال البقاعي: «ولما كان هذا أمرًا باهرًا، أتبعه ما يدل على أنه عنده يسير فقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ أي الذي له كل صفة كمال دائمًا أزلًا وأبدًا ﴿قَوِيًّا﴾ لا يعجزه شيء ﴿عَزِيزًا﴾ يغلب كل شيء[(٣)].

ولزيادة التمكين يعود الاسم الظاهر، فترى العدول عن المضمر إلى الظاهر: ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥].

---

(١) أسباب النزول للواحدي (ص: ٢٢٣).

(٢) البرهان في علوم القرآن للزركشي ١/ ٧٨، والإتقان في علوم القرآن للسيوطي ١/ ٣٥١.

(٣) نظم الدرر، للبقاعي، (٦/ ٩٥).

قال ابن عاشور: «تذييل لأن الفضل يشمل إعطاء الخير والمعاملة بالرحمة، وتنبيه على أن واجب مريد الخير التعرض لفضل الله تعالى والرغبة إليه في أن يتجلى عليه بصفة الفضل والرحمة، فيتخلى عن المعاصي والخبائث، ويتحلى بالفضائل والطاعات عسى أن يحبه ربه»(١).

۞ خامسًا: الإيغال:

وهو أن يستوفى معنى الكلام قبل البلوغ إلى مقطعه، ثم يأتي بالمقطع فيزيد معنى آخر يزيد به وضوحًا وشرحًا وتوكيدًا وحُسنًا، وأصل الكلمة من قولهم: أوغَلَ في الأمرِ، إذا أبْعَدَ الذهابَ فيهِ، فتسميته بالإيغال؛ لأن المتكلم قد تجاوز المعنى الذي هو آخذٌ فيه، وبلغ إلى زيادةٍ على الحدِّ(٢). ومنه: «ختم الكلام بما يفيد نكتة يتمُّ المعنى بدونها»(٣).

وزعم بعضهم أنه خاصٌّ بالشعر، وُردَّ بأنه وقع في القرآن، من ذلك: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٢١﴾ [يس: ٢٠ - ٢١]، فقوله: ﴿وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ إيغال؛ لأنه يتم المعنى بدونه، إذ الرسول مهتد لا محالة، لكن فيه زيادة مبالغة في الحثِّ على اتباع الرسل والترغيب فيه.

قال الزركشي: «فَإِنَّ الْمَعْنَى تَمَّ بِقَوْلِهِ: ﴿أَجْرًا﴾، ثُمَّ زَادَ الْفَاصِلَةَ لِمُنَاسَبَةِ رُءُوسِ الآي، فأوغل بها كما ترى، حتى أتى بها تفيد معنى زائدا عَلَى مَعْنَى الْكَلَامِ»(٤).

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، (١/ ٦٣٦).

(٢) استفدت هذا المعنى من بعض كتب البلاغة، يراجع البديع في نقد الشعر، لأسامة بن منقذ (ت ٥٤٤)، ص١٠٠، والصناعتين، لأبي هلال العسكري: حسن بن عبد الله ٣٧٢، ٢٩٦ والمثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لأبي الفتح ضياء الدين نصرالله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الموصلي، (٢/ ٣٣٣)

(٣) الإيضاح في علوم البلاغة للقزويني ص ١٩٩.

(٤) البرهان في علوم القرآن (١/ ٩٧).

وقال ابن أبي الأصبع: «ومن إيغال الكتاب العزيز أيضًا قوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾، فإن المعنى تمَّ بقوله سبحانه: ﴿مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا﴾، ثم أراد الفاصلة لمناسبة رؤوس الآي، فأوغل بها كما ترى، حيث أتى بها تفيد معنى زائدًا على معنى الكلام، وجاء في الكلام إيغال حسن بعد تتميم»[1].

قال ابن عاشور: «أي وهم متصفون بالاهتداء إلى ما يأتي بالسعادة الأبدية، وهم إنما يدعونكم إلى أن تسيروا سيرتهم، فإذا كانوا هم مهتدين فإن ما يدعونكم إليه من الاقتداء بهم دعوة إلى الهدى، فتضمّنت هذه الجملة بموقعها بعد التي قبلها ثناء على المرسلين وعلى ما يدعون إليه، وترغيبًا في متابعتهم.

واعلم أن هذه الآية قد مثَّل بها القزويني في «الإيضاح» و«التلخيص» للإطناب المسمى بالإيغال، وهو أن يؤتى بعد تمام المعنى المقصود بكلام آخر يتم المعنى بدونه لنكتة، وقد تُبيِّن لك مما فسَّرنا به أن قوله: ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ لم يكن مجرد زيادة، بل كان لتوقف الموعظة عليها، وكان قوله: ﴿مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا﴾ كالتوطئة له. ونعتذر لصاحب «التلخيص» بأن المثال يكفي فيه الفرض والتقدير[2].

❊ ❊ ❊

(١) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر، ابن أبي الأصبع (ص: ٢٣٦)

(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور (٢٢/ ٢١٤)

المبحث الثاني

سمات التذييل

للتذييل في محكم التنزيلِ سماتٌ فريدةٌ، لا يُمكنُ الإحاطةُ بها، ومن بينِ هذه السمات:

أولًا: مراعاة الفاصلة:

وهذه سمةٌ بارزةٌ في تذييلاتِ الآيات، ذلك أن للقرآن أسلوبًا فريدًا ومسلكًا عجيبًا لا يشبه كلام البشر؛ فهو ليس بشعر ولا سجع ولا يشبه الكلام المرسل؛ ذلك؛ لأنه كلام من ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

ثانيًا: التناسب:

«ترتيب المعاني المتآخية التي تتلاءم ولا تتنافر، والقرآن العظيم كله متناسب، لا تنافر فيه ولا تباين»[(١)]. **وللتناسب صورٌ عديدةٌ منها:**

تناسب الأطراف:

ويسمى «تعانق الأطراف»، وذلك في تشابه الألفاظ فضلًا عن تناسب المعاني، ومثال ذلك ختام يونس: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [يونس: ١٠٩]، مع مطلع سورة هود ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾﴾ [هود: ١]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَٰقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾ [الكهف: ٥٣ - ٥٤].

(١) الفوائد المشوقة لابن القيم ٨٧، ٨٨.

فالمجرمون لا يجدون مصرفًا لِما هم فيه، وكيف وقد ذهبت الدنيا دارُ العمل، وصاروا في دار الجزاء، وقد نكبوا عن طريق النجاة وأعرضوا عنه في الدنيا، وهو كتاب الله تعالى الذي صرَّف الله تعالى فيه من الآيات والعبر ووجوه الوعيد وأساليبه المتنوعة ؛ ليذَّكروا ويعتبروا فما زادهم إلا نفورًا وإعراضًا.

■ **تناسب أول تذييل في مطلع السورة مع تذييل ختامها:**

كما في سورة الحشر، قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١﴾ [الحشر: ١]، مع قوله تعالى في ختامها: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٤﴾ [الحشر: ٢٤].

■ **تناسب تذييل ختام السورة بتذييل ختام السورة التي تليها:**

تأمل في ختام سورة الحجر وختام سورة النحل تجد توجيهات للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ تثبِّت قلبه وتشدُّ أزره ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ٩٧ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٩٨ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ٩٩﴾ [الحجر: ٩٧-٩٩]، وفي ختام النحل ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ١٢٧ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨﴾ [النحل: ١٢٧، ١٢٨].

وتأمَّل ختام سورة المزمل بقوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [المزمل: ٢٠]، مع ختام سورة المدثر ﴿وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ ٥٦﴾ [المدثر: ٥٦].

■ **التناسب بين الألفاظ والمعاني، ويسمى بائتلاف اللفظ مع المعنى:**

وهو عند أهل البلاغة أن تكون الألفاظ مناسبة للمعنى المقصود موائمة له،

«فإذا كان المعنى فخمًا كان اللفظ الموضوع له جزلًا، وإذا كان المعنى رقيقًا كان اللفظ رشيقًا، وإذا كان المعنى غريبًا كان اللفظ كذلك، وهو وادٍ من أودية البلاغة، وكنز من كنوز البيان، وسيأتي مثالٌ له عند الحديث عن العمق والدقة.

ثالثًا: التعميم:

ومن السمات الغالبة على التذييل القرآني التعميم، حيث يغلب على التذييل أسلوب التعميم؛ مما يخرجه مخرج المثل السائر، والقاعدة الراسخة.

تأمل قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [آل عمران: ٨٦] فقد ورد في سبب نزولها: عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالَ: كَانَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ، أَسْلَمَ ثُمّ ارْتَدّ وَلَحِقَ بِالشّرْكِ ثُمّ تَنَدّمَ فَأَرْسَلَ إِلَى قَوْمِهِ سَلُوا لِي رَسُولَ اللّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَلْ لِي مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَجَاءَ قَوْمُهُ إِلَى رَسُولُ اللّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا: إنّ فُلَانًا قَدْ نَدِمَ، وَإِنّهُ أَمَرَنَا أَنْ نَسْأَلَكَ هَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَنَزَلَتْ ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [آل عمران: ٨٦]، إلى قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ [آل عمران: ٨٩] فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ قومُهُ فَأَسْلَمَ(١).

فقد أفاد التذييل التعميم؛ احترازًا من قصر عدم الهداية على شخص بعينه، أو أهل طائفة بعينها، بل كل ظالم ليس جديرًا بهداية الله تعالى، إذ العبرةُ بعمومِ

(١) رواه النسائي في السنن عَنِ ابْنِ عَبّاسٍ كتاب تحريم الدم. باب توبة المرتد. الحديث رقم: ٤٠٦٦ وأخرجه ابن حبان في صحيحه كما في موارد الظمآن ص ٤٢٧ والحاكم في المستدرك ٢/ ١٤٢، ٤/ ٣٦٦ وقال في كلا الموضعين: صحيح الإسناد ولم يُخرِّجاهُ ووافقه الذهبي، كما رواه الطبريُّ في تفسيره بإسنادٍ صحيح: جامع البيان ٣/ ٣٢٨ والبيهقي في اسنن الكبرى ٨/ ١٩٥.

اللفظِ لا بخصوصِ السببِ، وسياقُ الآيات في كفارِ أهل الكتاب، وإن كانت تشملُ كلَّ من اختار طريق الكفر بعد جلاءِ البرهانِ، أو ارتدَّ عن الإسلامِ.

قال السعدي: «فهؤلاء ظلَموا وتركوا الحق بعدما عرفوه، واتَّبَعوا الباطل مع علمهم ببطلانه، ظلمًا وبغيًا واتباعًا لأهوائهم، فهؤلاء لا يوفقون للهداية؛ لأن الذي يرجى أن يهتدي هو الذي لم يعرف الحق وهو حريص على التماسه، فهذا بالحري أن يُيسِّر الله له أسباب الهداية ويصونه من أسباب الغواية[1].

۞ رابعًا: الوضوح والبيان:

من سمات التذييل القرآني الوضوح والبيان، فلا غموض فيه ولا خفاء، وهذه سمة عامة من سمات القرآن، فهو كتاب بيِّنٌ واضح، فيأتي التذييل واضحًا بيِّنًا، وقد سبق الحديث عن التوضيح والتبيين في فوائد التذييل.

۞ خامسًا: التكرار:

وهو مُسْتطابٌ في كلام الخالقِ جَلَّوَعَلَا؛ له حلاوتُه وتأثيرُه، وله فوق ذلك مقاصدُه، وهو وسيلةٌ من وسائل البيان والتقرير والإقناع، ومنهجٌ تربوي أصيلٌ، وفيه موعظةٌ وتذكيرٌ، وزيادةُ تفصيلٍ وبيانٍ.

وإذا كان التكرار في كلام البشر كثيرًا ما يملُّ منه القارئ والسامع، فإن التكرار في القرآن سمةٌ من سماتِهِ الرائعة وأساليبه البديعة، ودليلُ على صدقه وبرهان على أنه من كلام الخالق جَلَّوَعَلَا وقد قال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢]، ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ

(١) تفسير السعدي (١/ ١٣٧).

هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴿٢٣﴾ [الزمر: ٢٣]، أي يشبهُ بعضه بعضًا في روعته ورفعته، وجماله وجلاله ومقاصده، وأحكامه وحكمه، وقصصه وأمثاله وحواراته(١).

سادسًا: العمق والدقة:

من سمات التذييل القرآني: العمق والدقة في المعاني والألفاظ؛ فالقرآن كتاب محكمٌ مفصَّلٌ نزل من لدن حكيم خبير.

قال تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾﴾ [هود: ١].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾﴾ [النمل: ٦].

قال ابن عطية في مقدمة التفسير: «إن كتاب الله لو نُزِعَت منه لفظة، ثم أُدير لسان العرب على لفظة غيرها لم يوجد، ونحن يتبيّن لنا البراعة في أكثره، ويخفى علينا وجهه في مواضع لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذٍ في سلامة الذوق، وجودة القريحة»(٢).

سابعًا: التنوع والتفنن:

ذكرتُ في فوائد التذييل كونه من ألوان التصريف في القول، ومن أساليب القرآن وفنونه، وهنا أذكر كون التنوع والتفنن سمةً من سمات التذييل بوجه خاص، فللتذييل صورٌ متنوعة وفنونٌ رائعةٌ تتناسب مع المضمون والسياق،

(١) ويراجع ما ذكره الزرقاني في مناهل العرفان ٢/ ٢٦٢.

(٢) مقدمة المحرر الوجيز لابن عطية ١/ ٣٩، وقد نبَّه الباقلاني كذلك على دقة القرآن الكريم في اختيار الألفاظ، وأن الكلمة في القرآن تنزل في مكانها المناسب لها، مستقرة غير نافرة، وضرب لهذا أمثلة كثيرةً إعجاز القرآن الباقلاني ١/ ١٨٤، ويراجع ما ذكره الخطَّابي حول هذا المعنى في كتابه: بيان إعجاز القرآن للخطابي: أبي سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم ضمن كتاب ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص ٢٩.

وتضفي على رياض القرآن وحدائقه المونقة بهجةً وضياءً وروعةً ورواء، وصدق من قال:

عباراتُنا شتَّى وحسنُكَ واحِدٌ وَكُلٌّ إلى ذاكَ الجَمَالِ يُشِيرُ

■ **ومن التنوع في التذييل:**

اتفاق صدر الآية مع اختلاف فاصلتها، وله شواهدُ كثيرة في القرآن، منها قوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [براهيم: ٣٤]، حيث سبق الحديث عن الكفر وعاقبته، ومن بدَّلوا نعمة الله كفرًا: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾﴾ [إبراهيم: ٢، ٣]، وقال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾﴾ [إبراهيم: ٢٨]، وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [النحل: ١٨].

فسياق السورة في الحديث عن نِعَم الله تعالى المبثوثة في هذه السورة الكريمة، ومنها مغفرتُه تعالى ورحمتُه لعباده.

وأشار الرازي إلى نكتة لطيفة، فقال عند تفسيره لموضع النحل: «البحث الثاني: أنه تعالى قال في هذا الموضع: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ وقال في سورة النحل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨]، ولما تأملت فيه لاحت لي فيه دقيقة، كأنه يقول: إذا حصلَت النعم الكثيرة فأنتَ الذي أخذتَها وأنا الذي أعطيتَها، فحصل لك عند أخذها وصفان: وهما كونك ظلومًا كفارًا، ولي وصفان عند إعطائها وهما كوني غفورًا رحيمًا، والمقصود كأنه يقول: إن كنت ظلومًا فأنا

غفور، وإن كنت كفارًا فأنا رحيم، أعلم عجزك وقصورك، فلا أقابل تقصيرك إلا بالتوفير، ولا أجازي جفاء إلا بالوفاء، ونسأل الله حُسن العاقبة والرحمة»[1].

■ **ومن التنوع والتفنن:**

التَّذْيِيلُ في قولِهِ تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [آل عمران: ٩٨].

التَّذْيِيلُ في الآية التي تليها: قولِهِ تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [آل عمران: ٩٩].

فالآية الثانية أشد من الأولى في الوعيد؛ حيث جمعوا إلى جانب كفرهم صدهم عن سبيل الله، فكان التهديد الثاني أشد من الأول، لأنه أنكر عليهم في الآية السابقة مجاهرتهم بالكفر وإصرارهم عليه، ثم أنكر عليهم في هذه الآية سعيَهم واحتيالهم في الصدِّ عن سبيل الله من آمن، وحرصَهم الدائب على نشر الزيغ والانحراف والإضلال أشد من الضلال.

قال البيضاوي: «لما كان المنكَرُ في الآية الأولى كفرَهم وهم يجهرون به ختمها بقوله: ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾، ولما كان في هذه الآية صدهم للمؤمنين عن الإسلام وكانوا يخفونه ويحتالون فيه قال ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾»[2].

فالمتأمل في الجملتين يلحظ التدرج في مخاطبتهم وترهيبهم، وأضيف إلى ذلك أن التذييلات المتلاحقة يكمل بعضها بعضًا.

---

(١) التفسير الكبير الرازي (١٩/ ١٠٠)

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ص ٨٣.

ومن التنوع والتفنن أيضًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء: ٤٨]، وقوله تعالى في نفس السورة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾ [النساء: ١١٦]. «خُتِمت الآيةُ المتقدمةُ بقوله: ﴿فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ﴾ وهذه بقوله: ﴿فَقَدۡ ضَلَّ﴾؛ لأن الأولى في شأن أهل الكتاب وهم عندهم علمٌ بصحة نبوته، وأن شريعتَهُ ناسخةٌ لجميعِ الشرائعِ، ومع ذلك فقد كابَروا في ذلك وافترَوا على اللهِ، وهذه في شأنِ قومٍ مشركينَ ليس لهم كتابٌ ولا عندهم علمٌ، فَنَاسَبَ وصفُهم بالضلالِ، وأيضًا قد تقدم هنا ذكرُ الهُدَى وهو ضدُّ الضَّلال[1].

كذلك في هذا التنوع بيانٌ لكون المشرك بالله قد جمع بين هذين الإثمين بين افترائه على الله تعالى وبين ضلاله؛ فالشِّركُ افتراءٌ وإثمٌ عظيمٌ كما أنه أعظمُ أنواع الضلالة، وأبعدُها عن الصواب والاستقامة.

■ ومن التنوع في التذييل:

ما نلحظه من ختام الآيات بأساليب متنوعة إنشائية أو خبرية، مثل ختامها بجملة منفية: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [النور: ٤٧]، فادعوا الإيمان وجاء الختام نافيًا دعواهم.

■ ختامها بالاستفهام:

تأمل قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [القصص: ٧١، ٧٢].

---

(١) يراجع درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي ص٧٩، ٨٠.

قال الرازي: «وإنما قرن بالضياء أفلا تسمعون؛ لأن السمع يدرك ما لا يدركه البصر من درك منافعه ووصف فوائده، وقرن بالليل أفلا تبصرون؛ لأن غيرك يدرك من منفعة الظلام ما تبصره أنت من السكون ونحوه»(١).

وقال الألوسي: «ولعله لاعتبار الأولية والآخرية ذُيِّلَت الآية الأولى بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾، بناء على أن المعنى ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ ممن سلف من آبائكم، أو مما سلف منا أن آلهتكم لا تقدر على مثل ذلك! والثانية بقوله سبحانه ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ بناء على أن المعنى ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ أنتم عجزها عن مثل ذلك.

وقيل في وجه تذييل الآية الأولى بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ دون قوله سبحانه ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾: إن المفروض لو تحقق بقي معه السمع دون الابصار؛ إذ ظلمة الليل لا تحجب السمع وتحجب البصر، وفي وجه تذييل الثانية بقوله: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ دون أفلا تسمعون أن تحقق المفروض وعدمه سيان في أمر السمع دون الإبصار، إذ لضياء النهار مدخل في الإبصار، وليس له مدخل في السمع أصلا»(٢).

■ **ختامها بالشرط:**

قال تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـٔٗا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾﴾ [البقرة: ٢٢٩]، فجاءت الجملة الشرطية تحذيرية لمن يخالف

(١) التفسير الكبير، للرازي (٢٥/ ١٣).
(٢) روح المعاني، (٢٠/ ١٠٨).

شرع الله في الطلاق، مقررة للأحكام الشرعية مؤكدة أن العدل فيها، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾﴾ [الأنفال: ١]. وحذف جواب الشرط لدلالة السياق عليه. وفي التذييل إلهاب لمشاعر المؤمنين، وحث لهم على الطاعة.

■ **ختامها بالمدح:**

﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٣١]. حيث جاء أسلوب المدح مقررًا لما جاء من أوصاف النعيم مجملًا له. وقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وفيه تقرير للأحكام، وتشويق للنفوس المحبة لربها بامتثال أوامره والتزام ما يحبه.

■ **ختامها بالذم:**

﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾ [هود: ٩٩].

■ **ختامها بالتعليل:**

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [المائدة: ٥٨]. فلو عقلوا لعظموها.

■ **ختامها بالأمر:**

﴿۞ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ [البقرة: ٢٠٣]، والتناسب بين الحج والحشر واضحٌ. «قال الحَرَالِّي: وكلية الحج ومناسكه مطابق في الاعتبار لأمر يوم الحشر ومواقفه، من خروج الحاج من وطنه متزودًا

كخروج الميت من الدنيا متزودًا بزاد العمل، ووصوله إلى الميقات وإهلاله متجردًا كانبعاثه من القبر متعريًا، وتلبيته في حجه كتلبيته في حشره»[1].

ومع هذا التفنن والتنوع في التذييلات إلا أن الحُسْنَ واحد، فالقرآن الكريم في درجةٍ واحدةٍ من الفصاحة والبيان والحسنِ والروعة والبلاغة والرفعة؛ فهو كلام الله تعالى الذي لا تَمَلُّ منه النفوسُ ولا يشبعُ منه الوجدانُ، قال ابن قتيبة: «وجعل الله تعالى القرآن متلوًّا، لا يُمَلُّ على طولِ التلاوةِ، ومسموعًا لا تَمُجُّه الآذانُ، وغضًّا لا يخلَق على كثرة الترداد»[2].

ثامنا: التناسق:

وهذا التناسق نلمسه في التشابه اللفظي والمعنوي بين التذييلات في السورة الواحدة، مع حُسن الترتيب، تأمل في سورة المنافقون: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ ٧ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ٨﴾ [المنافقون: ٧، ٨]، فجاءت الخاتمتان مختلفتين إثراء للمعنى واستيعابًا للمقصود، كما أن البلاغة تقتضي الترقي في النفي من الأعلى للأدنى، فنفى عنهم الفقه ثم نفى العلم، يقال: فلان ليس بفقيه ولا عالم، ولا يقال: فلان ليس بعالم ولا فقيه، فالفقه أعلى مرتبة من العلم.

كما أن الحقيقة الأولى غيبية لا يدركها إلا من له علم وفهم وإدراك، والثانية مشاهدة ملموسة فلا تخفى سوى على جاهل لا علم له. وقد أشار الفيروزأبادي لمعنى لطيف فقال: «قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ وبعده: ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾،

(١) نظم الدرر للبقاعي، (١/ ٣٨٣).

(٢) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص ٣.

لأنَّ الأوّل متّصل بقوله: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ وفي معرفتها غموض يَحتاج إلى فطنة، والمنافق لا فطنة له؛ والثاني متّصل بقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ٨﴾ أي: لا يعلمون بأنَّ الله مُعِزّ لأوليائِه ومذِلٌّ لأعدائه.»[1].

كذلك في سورة الحشر: ﴿لَأَنتُمۡ أَشَدُّ رَهۡبَةٗ فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ١٣ لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرٗى مُّحَصَّنَةٍ أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرِۭۚ بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞۚ تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ١٤﴾ [الحشر: ١٣، ١٤]، فالتفقه أعلى مرتبة من مجرد التعقل؛ لذا نفى الأعلى قبل نفي الأدنى.

فالآية الأولى اشتملت على حقيقة لا تغيب إلا على من لا فقه له؛ إذ هي تُعبِّر عما في ضمائرهم، فكان الأحرى بهم أن تمتلئ قلوبهم برهبة الله، لكنها امتلأت برهبة الخلق، ولو كانوا يفقهون لقدروا الله حق قدره. والحقيقة الثانية لا تغيب إلا على من لا عقل له، فهي واضحة جليّة تعبر عن ظاهر حالهم، التحصُّن وبناء الجدران والتشرذم فيما بينهم فلا يجمعهم إلا كراهية المسلمين.

قال الشيخ زكريا الأنصاري: «ختمه هنا بقوله ﴿لَّا يَفۡقَهُونَ﴾ وبعده بقوله ﴿لَّا يَعۡقِلُونَ﴾ لأن الأول متصل بقوله: ﴿لَأَنتُمۡ أَشَدُّ رَهۡبَةٗ فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِۚ﴾ أي لأنهم يفقهون ظاهر الشيء دون باطنه، والفقهُ معرفةُ الظاهر والباطن، فناسب نفيُه الفقه عنهم. والثاني متَّصلٌ بقوله: ﴿تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ﴾ أي لو عقلوا لاجتمعوا على الحقِّ ولم يتفرَّقوا، فناسب نَفيُ العقلِ عنهم»[2].

(١) بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز (١/ ٣٢٠)

(٢) فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن، الشيخ زكريا الأنصاري (ت: ٩٢٦هـ) (١/ ٥٥٨).

وقال النيسابوري: «وإنما قال هاهنا: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ وفي الأوّل ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾ لأن الفقه معرفة ظاهر الشيء وغامضه فنفي عنهم ذلك كما قلنا، وأراد هاهنا أنهم لو عقلوا لاجتمعوا على الحق ولم يتفرقوا، فتشتُّتُهم دليلُ عدم عقلهم؛ لأن العقل يحكم بأن الاجتماع معِين على المطلوب والتفرق يوهن القوى ولا سيما إذا كانوا مبطلين»(١).

وقال عبد الكريم الخطيب: «ولهذا جاء وصفهم هنا ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ على حين جاء وصفهم في مقام خوفهم من الناس أشد من خوفهم من الله: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ إذ كان العقل - مجرد العقل - كافيا في تقدير السلامة من الخطر، وأن السلامة رهن بالاجتماع لا بالتفرق، حتى إن بعض الحيوانات لتهتدي إلى هذا بغريزتها، فإذا واجهها خطر واجهته جبهة واحدة، لم يفر منها أحد. أما في مقام الخشية لله، فإنها لا تكون عن عقل - مجرد عقل - بل لا بد من عقل، معه فقه وعلم»(٢).

وفي سورة الطلاق: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢﴾ [الطلاق: ٢].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ۝٤ ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ۝٥﴾ [الطلاق: ٤، ٥].

---

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان، للنيسابوري (٦/ ٢٨٧)

(٢) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب (ت١٣٩٠) (١٤/ ٨٧٣).

ففي ثنايا الحديث عن أحكام الطلاق نلمسُ هذه اللطائف التربوية من ترسيخٍ للإيمان وتهذيبٍ للنفوس وتزكية لها، وتحليق بها في أجواء الفضيلة، ومن تغذية للعقول وتوعيةٍ لها وتبصرةٍ للقلوب، وغرسٍ للقيم. فتقوى الله تعالى والتوكل عليه واليقين بما عنده خيرُ ما يواجهُ به العبدُ ما يعتريه من هموم، وما يعترضه من مشكلات وأزمات.

وللتقوى أثرها في حياة المسلم ومعاملاته وسلوكه؛ والأتقياء أوفى الناس وأحرصهم على أداء الحقوق، من هنا تأتي أهمية التقوى في الامتثال لشرع الله تعالى في الطلاق. والملاحظ ارتباط جميع آيات الطلاق في القرآن بالحضّ على التقوى، تأمل في قول سبحانه في سورة البقرة في ثنايا الحديث عن أحكام الطلاق والأمر بالعدل والإحسان: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [البقرة: ٢٣١] ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، ﴿وَلِلۡمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٤١﴾ [البقرة: ٢٤١].

وفي النساء بعد الحديث عن أحكام النساء والوصية بهن ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١]، وقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾: حضَّ على التقوى في سائر الأحوالِ، ولا سيما فيما سبق من أمر الطلاق، والمعنى ومن يتق الله فيطلق للسُّنّة ولم يضارّ المعتدّة، ولم يخرجها من مسكنها واحتاط فأشهد، ولم يظلم ﴿يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ من الهموم والكروب والكُربِ والمِحَن.

قال البيضاوي: «وعدٌ لعامَّة المتقين بالخلاص عن مضارِّ الدارين والفوز بخيرهما من حيث لا يحتسبون»(١).

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للإمام البيضاوي ٣/ ٤١٥.

وقال النيسابوري: «ومن أسرار القرآن ولطائفه أنه سبحانه حثَّ على التقوى في هذه السورة ثلاثَ مراتٍ: بقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ وذلك على عدد الطلقات الثلاث، ووعد في كل مرة نوعًا من الجزاء:

* **الأول:** أنه يخرجه مما دخل فيه وهو كاره، ويتيح له خيرًا ممن طلقها.
* **الثاني:** اليسر في الأمور والموالاة في المقاصد ما دام حيًّا.
* **الثالث:** (أفضل الجزاء) وهو ما يكون في الآخرة من النعماء»[1].

وقال صاحب الظلال: «﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]. مخرجًا من الضيق في الدنيا والآخرة، ورزقًا من حيث لا يقدر ولا ينتظر، وهو تقريرٌ عام، وحقيقة دائمة، ولكن إلصاقها هنا بأحكام الطلاق يوحي بدقة انطباقها وتحققها عندما يتقي المتقون ربَّهم في هذا الشأن بصفة خاصة، وهو الشأنُ الذي لا ضابط فيه أحسّ ولا أدقّ من ضابط الشعور والضمير، فالتلاعب فيه مجاله واسع، لا يقف دونه إلا تقوى الله وحساسية الضمير»[2].

وقد جمعت هذه الوعود الثلاث لأعظم ما يحتاجه الإنسان، فالمُمتحَن والمُبتلَى يبحث عن المخرج، سيما لو كانت المحنة في الحياة الزوجية، يحتاج إلى تيسير من الله تعالى أن ييسر الله على الزوج المُعسَّر للوفاء بالتزاماته المالية والمعيشية، وييسر على الحامل حملها ووضعها، ثم الجميع في حاجة لتكفير الله تعالى السيئات، سيّما ما قد يقع بين الزوجين، بسبب الغضب والكراهية والنفور، فيلاحظ هذا الترتيب العجيب، لشدّ ما يحتاجه المُمتحَن إلى المخرج، ثم بعد

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان لنظام الدين النيسابوري (٧/ ١٧٥).
(٢) في ظلال القرآن (٦/ ٣٦٠٨).

إسعافه بالمخرج يحتاج للتيسير، ثم في النهاية يحتاج للمغفرة والرحمة والفضل من المولى القدير.

❊ ❊ ❊

الخاتمة

وتشتمل على:

* أولًا: خلاصةُ البحثِ ونتائِجُه.
* ثانيًا: توصيات.
* ثالثًا: المراجع.

أولًا: خلاصةُ البحثِ ونتائِجُه:

* بعد هذه الرحلةِ في رحابِ القرآنِ: يمكننا أن نقدِّم خلاصةَ البحثِ ونتائجَه في السطور التالية:
* جملةُ التذييل: جملةٌ تأتي في ختام الآية بعد تمام المعنى لتقريره وبيانه، وهي من خصائص أسلوب القرآن، ومن فنون بلاغته، وأفانين روعته، وغرضها البيان والتقرير وإثراء المعنى وتحقيقه. وخرج بقولنا جملة: شبه الجملة، والمفردة؛ فإنها لا تصلح تذييلا، بل التذييل جملة اسمية أو فعلية.
* بين المعنى اللغوي والاصطلاحي للتذييل صلةٌ قويَّةٌ.
* الفاصلةُ هي الكلمةُ الأخيرةُ في الآيةِ، تمَّ بها المعنى أم لم يتمَّ، أما التذييلُ: فإنه يأتي بتمامِ المعْنَى.
* التذييلُ لا يكونُ إلا جملةً، أما الفاصلةُ فإنها المقطع الأخير في آخر كلمة بالآية، وقد تكون الآية كلها فاصلة، مثل البداية بالأحرف المقطعة في أوائل السور لمن عدها آية، وقد تكون الآية كلمة واحدة فتكون الفاصلة مقطعها الأخير.

* كُلُّ نهايةِ آيةٍ فاصِلَةٌ، وليسَ كُلُّ فَاصِلةٍ تذييلا.
* يُراعى في التذييلِ دائما تَنَاسُبُ المعنى، ويُراعى في الفاصلةِ غالبًا التوافقُ اللفظيُّ والانسجامُ الصوتِيُّ، مع اتساق المعنى.
* تأتي جملةُ التذييلِ موصولةً تارةً ومفصولةً تارة، حَسْبَ سِيَاقِهَا واتسَاقِهَا.
* تُحَقِّقُ جملةُ التذييلِ أغراضًا كثيرةً، منها: التبيين والتقريرُ، والتعليلُ والاحتراسُ، وغيرُ ذلك مما يدلُّ على التناسق والتناسب بين جملة التذييل والكلام المُذيَّل.
* عُنِيَ عددٌ من المفسرين بالوقوف عند لطائف التذييلات، وإبراز معانيها، وبيان تناسبها وتآخيها، وتجلية لطائفها ودقائقها، ولا تكادُ تخلو سائرُ كتب التفسير من بيانٍ للتذييل على تفاوتٍ بينها في مدى العنايةِ بهذا الموضوع، وممن عُنِيَ بإبراز لطائفِ التذييل في القرآن: أبو حيان الأندلسي في البحر المحيط، والبقاعي في نظم الدرر، وأبو السعود في إرشاد العقل السليم، والبيضاوي في أنوار التنزيل، والعديد من كتَّابِ حواشيه، والألوسي في روح المعاني، وابن عاشور في التحرير والتنوير، وغيرُهم.
* للتذييل في محكم التنزيل سماتٌ فريدةٌ، ومزايا عديدةٌ، لا يُمكِنُ الإحاطةُ بها، كما لا يمكنُ لمن يجُولُ في روضٍ أو ينظُرُ لبحرٍ أن يحيطَ بأسراره ويحصِيَ عجائبَه، ومن بينِ هذه السمات الفريدة: التناسب، التعميم، الوضوح والبيان، التكرار، العمق والدقة، التنوع والتفنن.
* للتذييلِ فوائدُ عديدةٌ، وحِكَمٌ رشيدةٌ، فهو لونٌ من ألوانِ الإطنابِ به تَأْلَفُ الجُمَلِ وتأْلُقُها، وتعانقُ العبارات وتأنُّقُها، وانجلاء المعاني وتدفُّقُها، وفيه من المحسِّنات البلاغية ما فيه؛ حيث حسنُ الختام، وبراعةُ المقطع،

وتعانقُ الأطراف، وجمالُ الفاصلة، وعمقُ الصِّلَة، وغير ذلك.

* للوقوفِ على بلاغةِ التذييلِ ومعرفةِ حِكَمِهِ وأسرارِهِ: أصولٌ مهمةٌ لا بدَّ من مراعاتِها، من هذه الأصولِ: الاستعانةُ باللهِ تعالى على فهمِ كلامِهِ، ومراعاةُ مقاصدِ القرآنِ الكريمِ، والدرايةُ باللغةِ العربيةِ وأساليبِهَا وفُنُونِهَا، ومراعاةُ قواعِدِ التفسيرِ وأُصُولِهِ، والنظرةُ الكليَّةُ للسورةِ، والنظرُ في السياقِ، والتذوُّقُ، وصفاءُ الذِّهْنِ، مع معايشةِ القُرْآنِ الكريمِ عملا وسلوكًا ودعوةً.
* يأتي التذييل القرآني مؤكدا للمفهوم تارة وقد يأتي مؤكدًا للمفهوم والمنطوق معًا، كما ذكرنا في بلاغة «التصدير».
* نظرةُ المفسِّرِ للبلاغَةِ القرآنيةِ نظرةٌ عميقةٌ واعيةٌ، بعيدةُ المَدى، لا تتوقفُ عندَ إبرازِها، بل تنطلقُ منها إلى فَهْمٍ عَمِيقٍ واستنباطٍ دقيقٍ للمعاني والأحكامِ، فهي وسيلةٌ للمفسِّر لا غايةً، وهي مفاتيحُ لأبوابِ التدبُّرِ.
* مِن خِلالِ الدراسةِ التطبيقيةِ: رأينَا مَدَى الدِّقةِ والعُمْقِ في التذييلاتِ، ومَدَى تَنَاسُبِهَا وتَلاحُمِهَا مع الآيةِ.
* رأينا كيف حوتْ جُمَلُ التذييلِ واستوعبتْ كثيرًا من فنونِ البلاغة بأسلوبٍ سهلٍ لا تكلَّف فيه ولا غموضَ.
* للتذييل أثرٌ بالغٌ في ترسيخ العقيدة وتقرير الأحكام الشرعية، بالحض على امتثالها، وبيان مقاصدها وحِكَمِها، وإقامة الحجة، ودحض شُبَه المبطلين.
* يأتي التذييل بحكمة تشريعية، أو بمقصد قرآني، كما يأتي باسم أو اسمين مقترنين من أسماء الله الحسنى، وقد يأتي بجملة تحضيضية، أو تعجبية، أو إنكارية، أو غير ذلك من معان ومقاصد.

ثانيًا: توصيات:

آمل من أساتذتي الكرام المطالبة بإضافةِ مقرَّرٍ دراسيٍّ في مرحلة الإجازة والدراسات العليا، يُعنى بالغوص في أعماق البلاغة القرآنية، وتوظِيفِهَا في فهم المعاني واستنباط العبرِ والأحكام، وإبراز إعجاز القرآن، وروائع أساليبه ونظمه.

وبعد: فما كان في هذا البحث من صوابٍ فلله الحمد والمنة، وما كان من خطأ فمن نفسي، وما توفيقي إلا بالله.

❊ ❊ ❊

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

كتب التفسير وعلوم القرآن:

١. **الإتقان في علوم القرآن،** جلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ)، ط عالم الكتب بيروت، بدون.

٢. **أحكام القرآن،** لابن العربي: أبي بكر محمد بن عبد الله (٥٤٣ هـ)، دار الفكر بيروت ١٤٠٨هـ.

٣. **أخلاق حملة القرآن،** للآجري محمد بن حسين الآجري (٣٦٠ هـ)، ط دار الكتاب العربي.

٤. **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم،** لأبي السعود محمد بن محمد مصطفي العمادي الحنفي (ت ٩٨٢ هـ)، ط دار الفكر، بدون.

٥. **الأساس في التفسير،** للشيخ سعيد حوى (ت ١٤٠٩هـ)، ط دار السلام بالقاهرة ١٤٠٥هـ، ط١.

٦. **أسباب النزول،** للواحدي: أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري (ت ٤٦٨ هـ)، ط دار الكتب العلمية بيروت سنة ١٣٩٥هـ.

٧. **إعجاز القرآن،** للقاضي أبي بكر الباقلاني (ت٤٠٣ هـ) بهامش الإتقان في علوم القرآن ط عالم الكتب بيروت، بدون.

٨. **أنوار التنزيل وأسرار التأويل،** للبيضاوي ناصر الدين أبي الخير عبد الله بن

عمر بن محمد البيضاوي (ت ٦٩٢ هـ)، ط دار الرشيد بيروت ١٤٢١هـ.

٩. **بحر العلوم**، لعلاء الدين السمرقندي، (ت ٨٦٠ هـ)، ط دار الفكر بيروت ط١ ١٤١٨هـ.

١٠. **البحر المحيط**، للإمام محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي (ت ٧٥٤ هـ)، ط دار إحياء التراث العربي ط سنة ١٤١١هـ ثانية.

١١. **بدائع الفوائد**، لابن قيم الجوزية (ت ٧٥١ هـ)، ط دار ابن الجوزي بالرياض.

١٢. **البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة من طريق الشاطبية والدرة**، عبد الفتاح بن عبد الغني القاضي (ت ١٤٠٣ هـ) مكتبة الدار بالمدينة المنورة ط١ ١٤١٤هـ.

١٣. **البرهان في علوم القرآن**، لبدر الدين الزركشي (ت٧٩٤ هـ) دار إحياء الكتب العربية ١٣٧٦هـ.

١٤. **بيان إعجاز القرآن**، للخطابي أبي سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم (ت٣٨٨ هـ) ضمن كتاب ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ط دار المعارف ط٣.

١٥. **البيان في عدّ آي القرآن**، لأبي عمرو الداني الأندلسي ت ٤٤٤هـ ط منشورات مركز المخطوطات والتراث والوثائق بالكويت ١٤١٤هـ.

١٦. **تأويل مشكل القرآن**، لابن قتيبة الدينوري أبي محمد عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ)، ط دار التراث.

١٧. **التحرير والتنوير**، للأستاذ محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣هـ)، ط دار سحنون للنشر والتوزيع تونس.

١٨. **التسهيل لعلوم التنزيل**، للإمام المفسر محمد بن أحمد بن جزي الكلبي الغرناطي ت ٧٩٢هـ.

١٩. **تفسير القرآن العظيم**، لابن أبي حاتم للإمام الحافظ عبد الرحمن بن محمد بن إدريس الرازي (ت ٣٢٧هـ)، ط مكتبة نزار مصطفى الباز مكة المكرمة ١٤١٩هـ.

٢٠. **تفسير القرآن العظيم**، للإمام عبد الرزاق الصنعاني (ت ٢١١)، ط دار المعرفة بيروت.

٢١. **تفسير القرآن العظيم**، للحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير(ت ٧٧٤)، ط دار طيبة ٢ -١٤٢٠هـ.

٢٢. **التفسير القرآني للقرآن**، عبد الكريم الخطيب ط دار الفكر العربي بالقاهرة.

٢٣. **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، عبد الرحمن السعدى (ت ١٣٧٦)، ط مؤسسة الرسالة ١، ١٤٢٣هـ.

٢٤. **جامع البيان في تفسير القرآن**، محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠)، ط دار إحياء التراث العربي ط٢.

٢٥. **الجامع لأحكام القرآن**، القرطبي أبو عبد الله محمد بن أحمد (٦٧١)، ط دار الكتب العلمية بيروت.

٢٦. **الجواهر الحسان في تفسير القرآن**، للثعالبي عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي (ت ٨٧٥هـ)، ط مؤسسة الأعلمي بيروت، بدون تاريخ.

٢٧. **الجواهر في تفسير القرآن**، طنطاوي جوهري ١٣٥٨هـ، ط دار إحياء التراث العربي بيروت ١٤١٢هـ.

٢٨. **حاشية الشهاب «عناية القاضي وكفاية الراضي»، على تفسير البيضاوي** لشهاب الدين الخفاجي ت ١٠٦٩هـ، ط دار صادر بيروت، بدون تاريخ.

٢٩. **حاشية الصاوي على الجلالين**، أحمد بن محمد الصاوي المالكي (ت سنة ١٢٤١ هـ)، ط دار إحياء التراث العربي.

٣٠. **حاشية محيي الدين شيخ زاده على البيضاوي**، محمد بن مصلح الدين مصطفى القونوي الحنفي ت ٩٥١ هـ على تفسير القاضي البيضاوي ت٦٨٥هـ ط دار الكتب العلمية بيروت.

٣١. **حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن**، محمد الأمين بن عبد الله الأُرَمِي العلوي الهرري الشافعي ط دار طوق النجاة بيروت ١٤٢١هـ.

٣٢. **ختم الآيات بأسماء الله الحسنى ودلالتها**، د. على سليمان العبيد بحث محكم ط دار العاصمة بالرياض ط١ ١٤١٨هـ.

٣٣. **الدر المصون في علوم الكتاب المكنون**، أحمد بن يوسف، السمين الحلبي (ت ٧٥٦هـ) ط١ دار القلم بدمشق ١٤٠٧هـ.

٣٤. **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**، لجلال الدين السيوطي (٩١١ هـ)، ط دار الفكر سنة ١٤٠٣هـ.

٣٥. **درة التنزيل وغرة التأويل** للخطيب الإسكافي أبي عبد الله محمد بن عبد الله (ت٤٢٠)، ط دار الآفاق الجديدة بيروت أولى ١٣٩٣هـ.

٣٦. **روح البيان،** للبروسوى إسماعيل حقي (ت ١٣٧٠ هـ)، ط دار الفكر، بدون تاريخ.

٣٧. **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني،** لشهاب الدين السيد محمود الألوسي (ت ١٢٧٠ هـ)، ط دار إحياء التراث العربي ط ٤ سنة ١٤٠٥هـ.

٣٨. **زاد المسير في علم التفسير،** لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي (ت ٥٩٦ هـ)، ط المكتب الإسلامي بيروت ط١ سنة ١٣٨٥ هـ سنة ١٩٦٥م.

٣٩. **زهرة التفاسير،** محمد أبي زهرة رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت ١٣٩٤ هـ)، ط دار الفكر العربي.

٤٠. **السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلمات ربنا الحكيم الخبير،** شمس الدين محمد بن أحمد الخطيب الشربيني (ت ٩٧٧ هـ)، ط دار المعرفة بيروت ط ٢، بدون تاريخ.

٤١. **شرح الهداية في توجيه القراءات،** لأبي العباس أحمد بن عمار المهدوي (ت ٤٤٠ هـ) مكتبة الرشد بالرياض ط ١٤١٦هـ.

٤٢. **صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم،** عبد الرحمن محمد الدوسري ت١٣٩٩هـ ط دار المغني للنشر والتوزيع بالرياض ط١ ١٤٢٥ هـ ٢٠٠٤م.

٤٣. **الظاهرة الجمالية في القرآن الكريم،** نذير حمدان. ط دار المنارة جدة ط ١- ١٤١٢هـ.

٤٤. **العجاب في بيان الأسباب**، لابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ)، ط دار ابن الجوزي بالرياض.

٤٥. **الغاية في القراءات العشر**، لأبي بكر أحمد بن الحسين بن مهران النيسابوري (ت ٣٨١هـ)، ط مطابع العبيكان ط١ - ١٤٠٥هـ.

٤٦. **غرائب القرآن ورغائب الفرقان**، لنظام الدين الحسن بن محمد بن الحسين القمي النيسابوري ت ٧٢٨هـ، ط البابي الحلبي سنة ١٣٨١هـ، ط أولى.

٤٧. **فتح البيان في مقاصد القرآن**، صديق حسن خان القنوجي (١٣٠٧هـ) مطبعة العاصمة بالقاهرة سنة ١٩٦٥م.

٤٨. **فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن**، زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري، (ت ٩٢٦هـ) حققه: محمد علي الصابوني، ط دار القرآن الكريم، بيروت، ط١، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م.

٤٩. **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**، محمد بن علي بن الشوكاني (ت١٢٥٠ هـ) - ط دار الفكر، بدون تاريخ.

٥٠. **فهمُ القرآنِ ومعانيهِ**، لأبي عبدِ الله الحارثِ بن أسدِ بنِ عبدِ اللهِ المحاسبيِّ (ت ٢٤٣هـ)، ط ٢ دار الكندي أدار الفكر بيروت ١٣٩٨هـ.

٥١. **في ظلال القرآن**، لسيد قطب (ت ١٩٦٦م) دار الشروق سنة ١٤٠٧ هـ - ط ١٣.

٥٢. **قطف الأزهار في كشف الأسرار**، للسيوطي، وزارة الأوقاف ١٤١٤هـ ١٩٩٤م قطر.

٥٣. **قواعد التدبر الأمثل**، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني ط دار القلم دمشق ١٤٠٩هـ ط٢.

٥٤. **الكتاب المُوضَح في وجوه القراءات وعللها**، نصر بن علي بن محمد أبي عبد الله الشيرازي الفارسي النحوي المعروف بابن أبي مريم (ت ٥٦٥هـ) طبع الجماعة الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم بجدة ١٤١٤هـ ط ١.

٥٥. **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، لمحمود بن عمر الزمخشري المعتزلي (ت ٥٢٨ هـ)، ط دار الفكر، بدون تاريخ.

٥٦. **كشف التنزيل في تحقق مباحث التأويل**، لأبي بكر الحداد اليمني(ت ١١٣٢هـ)ط١، دار المدار الإسلامي بيروت ٢٠٠٣م.

٥٧. **لباب التأويل في معاني التنزيل**، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي (ت ٧٤١ هـ) ط٢ البابي الحلبي١٣٧٥هـ.

٥٨. **اللباب في علوم الكتاب**، لابن عادل الحنبلي لسراج الدين أبي حفص: عمر بن علي بن عادل الحنبلي، الدمشقي. ط دار الكتب العلمية ط١ -١٩٩٨م.

٥٩. **محاسن التأويل**، محمد جمال الدين القاسمي، ت١٣٢٢، ط دار إحياء الكتب العربية. مصر.

٦٠. **المحرر الوجيز**، لابن عطية عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي (ت ٥٤٦هـ)، ط مؤسسة دار العلوم للطباعة والنشر – الدوحة ١٤٠٣هـ.

٦١. **مدارك التنزيل وحقائق التأويل**، النسفي عبد الله بن أحمد بن محمود (ت ٧١٠هـ)، ط دار الفكر.

٦٢. **مراصد المطالع الطالع في تناسب المطالع والمقاطع**، للسيوطي ط مكتبة دار المنهاج بالرياض ١٤٢٦ هـ ط١

٦٣. **مرشد الخلان إلى معرفة عد آي القرآن**، عبد الرازق على إبراهيم موسى، ط المكتبة العصرية بيروت.

٦٤. **مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور**، لبرهان الدين إبراهيم بن عمر بن حسن البقاعى (ت ٨٨٥ هـ)، ط مكتبة المعارف بالرياض ١٤٠٨هـ.

٦٥. **معالم التنزيل**، للبغوي الحسين بن مسعود (ت ٥١٦هـ)، ط دار الكتب العلمية بيروت.

٦٦. **معاني القرآن الكريم**، للإمام أبي جعفر النحاس المتوفى سنة ٣٣٨هـ، ط مركز إحياء التراث الإسلامي – مكة المكرمة ط١٤٠٨هـ ط١.

٦٧. **معاني القرآن** لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء (ت ٢٠٧ هـ)، ط دار السرور بيروت.

٦٨. **معاني القرآن وإعرابه**، للزجاج أبي إسحاق إبراهيم بن السري (ت ٣١١ هـ)، ط سنة ١٤٠٨هـ، ط أولي ط عالم الكتب ٠

٦٩. **مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)**، لفخر الدين الرازي (ت ٦٠٦ هـ) دار الفكر ١٤٠٥هـ.

٧٠. **المفردات في غريب القرآن،** للراغب الأصفهاني: للإمام أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (ت ٥٠٢ هـ)، ط دار القلم - دمشق.

٧١. **النبأ العظيم،** د. محمد عبد الله دراز(ت ١٣٧٧ هـ)، ط مطبعة السعادة ١٣٨٩ هـ، ١٩٦٩ م.

٧٢. **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور،** لبرهان الدين البقاعي (٨٨٥هـ)، ط دار الكتب العلمية.

٧٣. **النكت في إعجاز القرآن،** للرماني أبي الحسن علي بن عيسى (٣٨٤هـ) ضمن كتاب ثلاث رسائل في الإعجاز تحقيق محمد زغلول سلام وآخرون ط دار المعارف بالقاهرة ١٩٦٨ م.

كتب السنة:

٧٤. **الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان،** للأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسى (ت ٧٣٩ هـ)- تحقيق شعيب الأرنؤوط - ط مؤسسة الرسالة بيروت.

٧٥. **الأدب المفرد** للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ط دولة الإمارات ١٤٠١هـ .

٧٦. **سنن ابن ماجه،** أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (ت ٢٧٥ هـ)، ط دار الحديث بالقاهرة.

٧٧. **سنن أبي داود،** لأبي داود سليمان بن شعث السجستاني الأزدي (٢٥٧ هـ)، ط دار الفكر، بدون.

٧٨. **سنن الترمذي**، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة (ت ٢٩٧ هـ) دار الفكر ١٤٠٨هـ.

٧٩. **سنن الدارقطني**، علي بن عمر(٣٨٥ هـ)، ط دار المحاسن بالقاهرة ١٣٨٦هـ.

٨٠. **السنن الكبرى** للبيهقي (أبو بكر أحمد بن الحسين)، ط دار الفكر، بدون تاريخ.

٨١. **سنن النسائي**، أحمد بن شعيب النسائي (ت ٣٠٣ هـ)، ط دار الكتب العلمية بيروت.

٨٢. **شرح القصائد العشر**، أبو زكريا يحيى بن علي بن محمد الشيبانيّ التبريزي، (ت: ٥٠٢هـ): إدارة الطباعة المنيرية. ١٣٥٢هـ.

٨٣. **شعب الإيمان** للبيهقي ط دار الكتب العلمية ١٤١٠هـ، ط أولى.

٨٤. **صحيح البخاري**، أبي عبد الله محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦)، ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان.

٨٥. **صحيح مسلم**، الإمام مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري (ت ٢٦١ هـ) دار إحياء الكتب العربية.

٨٦. **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، للهيثمي نور الدين علي أبي بكر الهيثمي (ت ٨٠٧)، دار الكتاب العربي بيروت ١٤٠٢هـ.

٨٧. **المستدرك على الصحيحين**، للإمام أبي عبد الله الحاكم النيسابوري (ت ٤٠٥ هـ) وفي ذيله تلخيص المستدرك للإمام شمس الدين الذهبي ت ٨٤٨هـ، ط دار الكتب العلمية.

٨٨. **المسند**، للإمام أحمد بن حنبل ط المكتب الإسلامي، بدون تاريخ.

٨٩. **مسند أبي يعلى الموصلي (٣٠٧)** ط دار القبلة جدة ومؤسسة علوم القرآن بيروت ط١- ١٤٠٨هـ.

٩٠. **المصنف للحافظ أبي بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني (٢١١)** ط٢ المكتب الإسلامي ١٤٠٣.

٩١. **المعجم الكبير**، للطبراني أبي القاسم سليمان بن أحمد ٣٦٠هـ، ط دار البيان العربي ط ٢، بدون.

٩٢. **الموطأ**، للإمامِ مالك - برواية الإمام محمَّد بن الحَسَن ط دار القلم دمشق، ١، ١٤١٣ هـ - ١٩٩١م

كتب اللغة:

٩٣. **الإيضاح في علوم البلاغة**، لجلال الدين القزويني (ت ٧٣٩ هـ)، ط دار الكتاب المصري.

٩٤. **بديع القرآن**، لابن أبي الإصبع عبد العظيم بن عبد الواحد القيرواني المصري (ت ٦٥٤)، دار نهضة مصر، ٢، بدون.

٩٥. **البديع في نقد الشعر**، لأسامة بن منقذ (ت ٥٤٤)، ط البابي الحلبي بالقاهرة.

٩٦. **تاج العروس من جواهر القاموس**، للإمام محب الدين أبي الفضل السيد محمد المرتضى الحسيني الواسطي الزبيدي الحنفي نزيل مصر(ت ١٢٠٥ هـ)، ط المطبعة الخيرية بجمالة مصر ١٣٠٦هـ.

٩٧. **تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر**، لابن أبي الأصبع (ت ٦٥٤)، ط المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بمصر.

٩٨. **تلخيص المفتاح في المعاني والبيان والبديع**، الخطيب القزويني (ت ٧٣٩ هـ)، ط البابي الحلبي ١٣٨٥هـ.

٩٩. **تهذيب اللغة**، لأبي منصور محمد بن أحمد بن طلحة الأزهري الهروي (ت ٣٧٠)، ط الدار المصرية.

١٠٠. **جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة**، أحمد زكي صفوت، ط المكتبة العلمية بيروت.

١٠١. **خزانة الأدب وغاية الأرب**، لتقي الدين أبي بكر علي بن عبد الله الحموي (ت ٨٣٧) دار صادر بيروت.

١٠٢. **سر الفصاحة**، لأبي محمد عبد الله بن محمد بن سنان الخفاجي(ت ٤٦٦)، ط دار الكتب العلمية ١، ١٤٠٢هـ.

١٠٣. **شرح البردة**، تأليف السوسي على كان حيا قبل ١١٦١ مخطوط ٥, ٨١١ ش.س ٤٦٨٦ بجامعة الملك سعود.

١٠٤. **الشوقيات**، لأمير الشعراء أحمد شوقي، دار كنوز المعرفة.

١٠٥. **الصناعتين**، لأبي هلال العسكري: حسن بن عبد الله (ت ٣٩٥)، ط دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠١هـ.

١٠٦. **الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز**، يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي اليمني ط دار الكتب العلمية، بدون.

١٠٧. **عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح** لتقي الدين السبكي (٧٧٣)، المكتبة العصرية بيروت ط ١٤٢٣هـ، ط١.

١٠٨. **علوم البلاغة البيان والمعاني والبديع**، للأستاذ أحمد مصطفى المراغي ط دار القلم بيروت ط٢، ١٤٠٢هـ.

١٠٩. **الفاصلة القرآنية**، للدكتور عبد الفتاح لاشين ط دار المريخ بالرياض ١٤٠٢هـ.

١١٠. **الفاصلة في القرآن**، محمد الحسناوي، ط المكتب الإسلامي بيروت ط٢، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦.

١١١. **الفواصل القرآنية دراسة بلاغية**، للدكتور السيد خضر - مكتبة الإيمان بالمنصورة، ط١ ١٤٢٠هـ.

١١٢. **فيض الفتاح على حواشي شرح تلخيص المفتاح**، لعبد الرحمن الشربيني من شيوخ الأزهر، مطبعة مدرسة والدة عباس الأول ١٣٢٦هـ.

١١٣. **القاموس المحيط**، لمجد الدين الفيروزآبادي (ت٨١٧)، ط المكتبة التجارية الكبرى ط٥.

١١٤. **الكامل في اللغة والأدب**، محمد بن يزيد المبرد، أبو العباس (ت ٢٨٥هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ط دار الفكر العربي – القاهرة ط ثالثة ١٤١٧هـ.

١١٥. **لسان العرب**، لجمال الدين أبي الفضل محمد بن مكرم بن علي بن أحمد بن أبي القاسم بن منظور (٧١١ هـ). ط دار المعارف، بدون تاريخ.

١١٦. **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، لأبي الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الموصلي، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية – بيروت، ١٩٩٥.

١١٧. **مختار الصحاح**، للرازي محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي (ت ٦٦٠)، ط مكتبة لبنان.

١١٨. **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير**، للعلَّامة أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي ت ٧٧٠هـ، ط المكتبة العصرية بيروت.

١١٩. **معجم البلاغة العربية**، د. بدوي طبانة، ط دار المنارة جدة ط ١٤٠٨هـ.

١٢٠. **المعجم المفصل في علوم البلاغة البديع والبيان والمعاني**، د. إنعام عكاوي دار الكتب العلمية ١٤١٧هـ.

١٢١. **مفتاح العلوم**، للسكاكي أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر(ت٦٢٦ هـ)ط المكتبة العلمية الجديدة بيروت.

١٢٢. **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني (ت ١٠٤١هـ)، تحقيق: إحسان عباس، ط دار صادر– بيروت – لبنان.

١٢٣. **نهاية الأرب في فنون الأدب**، للنويري: شهاب الدين: أحمد بن عبدالوهاب النويري الكندي (ت: ٧٣٢ هـ).

❊ ❊ ❊

الفهرس

الموضوع	رقم الصفحة
ملخص البحث	٢٧
المقدمة	٢٨
تمهيد معنى التذييل وأهمية دراسته	٣٥
المبحث الأول: تعريف التَّذييل في اللغة والاصطلاح، والفرق بينه وبين الفاصلة	٣٥
■ أولًا: التَّذييلُ في اللغة	٣٥
■ ثانيًا: التذييل في الاصطلاح	٣٦
■ ثالثًا: الصلة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي	٣٨
■ رابعًا: الفاصلة في اللغة والاصطلاح	٣٩
■ خامسًا: بين التذييل والفاصلة	٤١
المبحث الثاني: أَهمِّيَّةُ دراسةِ التذييل في القرآن	٤٢
■ أولًا: الاستعانةُ بهذا العلمِ على فهمِ كتابِ اللهِ	٤٢
■ ثانيًا: إبراز جانبٍ مهمٍّ من جوانب الإعجاز القرآني	٤٤
■ ثالثًا: بيان مُشْكَلِ التذييل	٤٥
■ رابعًا: ردُّ شبهات المستشرقين وأعداء الدين حول الوحدة القرآنية	٤٦
■ خامسًا: الاستعانةُ بهذا العلم في تثبيت حفظ القرآن الكريم	٤٨
الفصل الأول: فوائد التذييل وأصولُ الوقوفِ على لطائفه	٥٠
المبحث الأول: فوائد التذييل	٥٠
■ أولًا: التبيين	٥٠
■ ثانيًا: تقريرُ المعاني	٥١
■ ثالثًا: جمالُ العبارة	٥٥

الموضوع	رقم الصفحة

- رابعًا: إثراءُ المَعْنَى ٥٧
- خامسًا: حُسْنُ التعليل ٦٠
- سادسًا: حُسْنُ الختامِ ٦٢
- سابعا: الاحتراس ٦٣
- ثامنا: التنوعُ والتفننُ ٦٥
- تاسعا: إخراج الكلام مخرج المثل ٦٦

المبحث الثاني: أصولُ الوقوفِ على لطائفه ٦٨

- أولًا: مراعاةُ مقاصد القرآن الكريم ٦٨
- ثانيًا: الدرايةُ باللغةِ العربيةِ وأساليبها وفنونِهَا ٦٩
- ثالثًا: مراعاةُ قواعدِ التفسيرِ وأصوله ٦٩
- رابعًا: النظرة الكلية للسورة ٧٠
- خامسًا: النظر في السياق ٧١
- سادسًا: التذَوُّق وصفاءُ الذهنِ ومعايشةُ القُرْآنِ مع الاستعانة بالله ٧٣

الفصل الثاني: فنون التذييل وسماته ٧٧

المبحث الأول: من فنون التذييل في القرآن ٧٧

- أولًا: التتميم ٧٧
- ثانيًا: التصدير ٧٨
- ثالثًا: التوشيح ٧٩
- رابعًا: التمكين ٨١
- خامسًا: الإيغال ٨٢

المبحث الثاني: سمات التذييل ٨٤

- أولًا: مراعاة الفاصلة ٨٤

الموضوع	رقم الصفحة

- ثانيًا: التناسب ٨٤
- ثالثًا: التعميم ٨٦
- رابعًا: الوضوح والبيان ٨٧
- خامسًا: التكرار ٨٧
- سادسًا: العمق والدقة ٨٨
- سابعًا: التنوع والتفنن ٨٨
- ثامنا: التناسق ٩٤

الخاتمة ١٠٠

المصادر والمراجع ١٠٤

الفهرس ١١٨

❊ ❊ ❊